وَسَائِلُ الثَّبَاتِ عِنْدَ الْفِتَنِ فِي ضَوْءِ سُورَةِ الْكَهْفِ

دِرَاسَةٌ مَوْضُوعِيَّةٌ

إِعْدادُ:

د. إبراهيم بن علي الحسن

الأستاذ المساعد بجامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية

المقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه، وبعد:

فإن العلم بمضلات الفتن، وصوارف المرء عن دينه، وطرق التحرز منها، من أهم المطالب الدينية، ومن أعظم المقاصد الشرعية، فإن الدين علم وعمل، ووقاية وحماية، وتحلية وتخلية، كما جاء في الدعاء العظيم في سورة الفاتحة، بطلب الهداية إلى الصراط المستقيم، وهي التحلية، مع السلامة من طريق المغضوب عليهم، ومن سبيل الضالين، وهذه التخلية.

إن من لم يحم دينه من الفتن بسياج من المعرفة، وحصون من التحرز، أوشك على فقدانه، فالشُّبه خطافة، والفتن جذابة، والمرء ضعيف، والقلب يتقلّب.

ولا يخفى أن علم وقاية الدين من أشرف المطالب، وأجل المقاصد، ولاسبيل لذلك إلا إن كان المنطلق من كتاب الله، وهدي رسول اللهﷺ .

وتزداد أهمية هذه المعرفة التي يمكن تسميتها بـ:"وقاية الإيمان من مضلات الفتن" بما تحدثه من آثار جليلة، من التعلق بالله، والإقبال على الآخرة، والتعرف على مداخل الفتن، والمخارج منها، والخوف من الانتكاس، وتقلب القلب، ونحو ذلك مما يعمق الإيمان، ويرسخ اليقين، ويحمل على اللهج بذكر الله، والتعوذ به، والتحصن بكلماته.

ومن المعلوم أن الحياة الحقيقية هي حياة القلب والروح بالإيمان والعبادة، كما قال تعالى:﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾(الأنعام: ١٢٢) وحياة القلب بعد موته يعرض لها موت، ومن فقد هذه الحياة فقد الخير كله، مهما نال من

عز في الدنيا، أو عبّ من لذائذها العاجلة، كما قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧)

ولقد لفت انتباهي ربط النبي ﷺ السلامة من فتنة المسيح الدجال بقراءة سورة الكهف أو حفظ بعضها، وتساءلت عن سر ذلك، وقرأت كتباً كثيرة، فتبين لي أن السورة كنز دفين، وحصن حصين، لا لصد فتنة الدجال وحسب، بل لجلِّ الفتن الكبار التي تعترض حياة المؤمن، فأحببت أن أسطر كلمات في هذا الشأن تحت عنوان:« الثبات عند الفتن في ضوء سورة الكهف» دراسة موضوعية، والله أسأل أن ينفع به.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١) خطورة الفتن، وأثرها على إيمان المرء، ولا سيما في هذا العصر.

٢) كثرة الفتن التي عالجتها سورة الكهف.

٣) ارتباط المسلم بسورة الكهف، كل جمعة ؛ لورود الأثر بقراءتها.

٤) هذه الدراسة تفتح آفاقاً لتدبر كتاب الله، والاستشفاء به.

٥) تنبيه الدارسين إلى اشتمال هذا الكتاب العظيم على كنوز تحتاج إلى إثارة، مما يبني الأمة، أو يعالج أدواءها.

الدراسات السابقة:

لم أجد من درس هذا الموضوع دراسة علمية سوى د. بشير الدليمي، فقد كتب موضوعاً بعنوان(الفتن الأربع في سورة الكهف) في حدود عشرين صفحة، ثم استفاد من بحثه كثير ممن كتبوا مقالات عبر المواقع، أو خطب الجمعة، ولم أر من أضاف جديداً ذا قيمة، ويفترق بحثي عن بحثه في النواحي التالية:

١) ينطلق بحثه من ذكر الفتن البارزة في السورة، ومنطلق بحثي الثبات عند الفتن، وعلاج آثارها، وشتان بين الذكر والعلاج وإن كان لم يخل بحثه من علاج قضية الدجال.

٢) اقتصر على ذكر أربع فتن، تنطلق من قصص السورة الأربع، مع فتنة الدجال، بينما ذكرت ست فتن إجمالاً، تنطوي على اثنتي عشرة فتنة تفصيلاً.

٣) يرى فضيلة الدكتور أن قصة موسى مع الخضر تعالج الفتنة بالعلم، وأرى أنه لم يحالفه الصواب في ذلك، ولا ينبغي أن تنسب الفتنة بالعلم إلى نبي مبارك من أجل غفلته عن أدب من آدابه، وهو قوله: الله أعلم، لما سئل هل في الْأَرْض أَحَدٌ أعْلَمُ منك ؟! قال: لَا، فَعَتَبَ عَليه إذ لم يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَى اللَّهِ"[(١)].

والصواب– فيما أرى – أن القصة تعالج الفتنة عند حلول أقدار الله المؤلمة، كما سنراه مفصلاً في المبحث الثالث.

(١) انظر توضيح ذلك وتخريج الحديث في أول المبحث الثالث، ص:٤٦، الحاشية رقم: ١.

ركز على قضية ارتباط القصص الأربع في السورة بفتنة الدجال، ولذا جاء الحديث عن الفتن الأربع مختصراً لم يتجاوز ثمان صفحات.

وبهذا يتبين حاجة الموضوع إلى المزيد من الدراسة.

خطة البحث:

رتبت هذا الموضوع على مقدمة وتمهيد وستة مباحث وخاتمة وفهارس، كما يلي:

– المقدمة: وقد اشتملت على أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وخطته، والمنهج المتبع فيه.

– التمهيد: وفيه مقدمات بين يدي البحث، تُعنى بنزول السورة وفضلها، وتناسب اسمها مع الفتنة، ومعنى الفتنة، وأقسامها.

– المبحث الأول: الفتنة عن الدين الحق.

– المبحث الثاني: الفتنة بالحياة الدنيا وزينتها.

– المبحث الثالث: الفتنة عند وقوع القدر المكروه.

– المبحث الرابع: الفتنة بالتمكين في الأرض وعلو المقام.

– المبحث الخامس: فتنة الغلو بالأنبياء والأولياء.

– المبحث السادس: الفتنة بالمسيح الدجال.

– الخاتمة: وفيها أبرز النتائج وبعض التوصيات.

– ثبت المصادر والمراجع.

– فهرس الموضوعات.

منهج البحث:

سأتبع في هذا البحث المنهج الوصفي الاستقرائي للموضوع، متبعاً ما يأتي:

١) الاستقراء التام لسورة الكهف، واستخراج ما يمت للفتن بصلة، إما وصفاً أو علاجاً، وسواء كانت الدلالة ظاهرة، أو تضمنا، أو لزوما.

٢) اعتمدت في تفسير الآيات على مصادر موثوقة لفهم المراد، فإن كان ظاهرا، واتفقت عليه كتب التفسير بالمأثور، فإني أصوغ المعنى بأسلوبي مع التوثيق.

٣) كتابة الآيات بخط المصحف، مع ذكر أرقامها، وعزوها إلى سورها.

٤) تخريج الأحاديث من مصادرها الأصلية، فما كان منها في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بذلك، وإلا خرجته من غيرهما مع بيان درجته من الصحة، مبتعداً عن الضعيف، وإن جاء له ذكر بينت ضعفه.

٥) العناية بعلامات الترقيم.

٦) طبيعة الموضوع تقتضي الاعتماد على الأسلوب الخطابي أحيانا، ولا يصح إدعاء البعض أن هذا يخالف أصول البحث العلمي ؛ مجاراة للباحثين في علوم الطبيعة، التي تتنافى مع هذا الأسلوب، لأن الباحث في القرآن وعلوم الشريعة – فيما أرى– له مقصدان:

أ– معرفة الحقيقة، ويلتزم الباحث فيها بالتجرد والتوثيق، والاعتماد على البرهان، بعيدا عن الإيحاء والتهويل، كشأن أئمة التفسير والحديث والفقه، وغيرها.

ب– تحفيز المخاطب على فعل المرغوب، وترك المحظور، ويتجوز في هذا

باستعمال أساليب التحفيز، كالترغيب والترهيب، والاستفهام والتعجب وغيرها، كشأن المصنفين في الترغيب والترهيب، وأدب السلوك، والخطابة.

٧) حرصت أن يكون البحث سهل المنال، يشد القارئ مهما كانت ثقافته، إذ الهدف أن يكون علاجا لواقع، فإن وفقت فهذا ما أردت، وما توفيقي إلا بالله، وإلا فحسبي أنني اجتهدت واستغفر الله.

وبعد:

فأسأل الله أن يلهم الصواب، ويهدي للرشاد، وأن يجعل هذا البحث خالصاً لوجهه، نافعاً لعباده، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

التمهـــــــيد

١) نزول سورة الكهف:

سورة الكهف مكية، بإجماع المفسرين، وقد ذكر الإجماع عدد من المفسرين[١].

ومعلوم أن السور المكية تعنى بأصول العقيدة من توحيد الخالق، وإثبات النبوة، وتقرير المعاد، وكذلك أصول الأخلاق[٢].

ومن يعلم حالة المستضعفين المؤمنين في العهد المكي، وماذا كان ينالهم من المشركين من التنكيل والتقتيل، وما هو أشد كالتشكيك والتضليل، والقسر على ترك المعتقد، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾{ البقرة:٢١٧} يعلم مناسبة السورة لتلك الفترة الحرجة، وموافقة مضمونها لتأريخ الدعوة الإسلامية.

٢) فضل السورة:

سورة الكهف من السور التي حاء في فضلها أحاديث صحيحة، ولا شك أن تخصيص النبي ﷺ بعض السور بمزيد فضل دليل كثرة ما تتضمنه من معاني سامقة، وحث على زيادة العناية بها، والاستفادة منها، ومما ورد في فضلها:

أ– عن أبي الدرداء – رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ:«من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال»[٣].

---

(١) انظر: المحرر الوجيز(٣/٤٩٤) والجامع لأحكام القرآن(١٠/٣٤٦).

(٢) انظر: مناهل العرفان(١/٢٠٣) ومباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح،ص:١٨٣.

(٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل سورة الكهف،ح(٨٠٩)(١/٥٥٥).

ب– وعن أبي سعيد – رضي الله عنه– قال: «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق»(١).

وفي رواية« أضاء الله له من النور ما بين الجمعتين»(٢). **وسيأتي في المبحث السادس بيان السر في هذه الآيات العشر، وفي سورة الكهف عموما.**

ت– وعن البراء بن عازب –رضي الله عنه– قال: قرأ رجل الكهف وفي الدار دابة، فجعلت تنفر، فنظر فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيته، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال:« اقرأ فلان فإنها السكينة تتنزل عند القرآن، أو تنزلت للقرآن»(٣).

٣) محور السورة ومناسبته لاسمها:

الموضوع الرئيس للسورة هو الفتن، وهو المحور الذي تدور حوله جميع موضوعات السورة البارزة.

ويرى الشيخ الميداني(٤) **أن للسورة القرآنية وحدة موضوع تدور حوله،**

---

(١) رواه ابو عبيد في فضائل القرآن، ص:٢٤٤، والبيهقي في شعب الإيمان ح(٢٤٤٤)(٢/٤٧٤) وقال: المحفوظ موقوف. وصححه مرفوعا الألباني في صحيح الجامع الصغير ح(٦٤٧١)(٢/١١٠٤) قلت: والموقوف له حكم الرفع لأن مثله لا يقال بالرأي.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان باب في الصلوات، فضل الصلاة على النبي...ح(٣٠٣٨)(٣/١١٢) وقال:(رويناه موقوفاً ومرفوعاً) وصحح الألباني رفعه. انظر صحيح الجامع ح(٦٤٧١)(٢/١١٠٤).

(٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب نزول السكينة... ح(٧٩٥)(١/٥٤٨).

(٤) هو عبدالرحمن حسن الميداني من العلماء المعاصرين ومن المفكرين الإسلاميين البارزين، عمل =

وكل جملها ترتبط به، أو بما تفرع عنه من عناصر[١].

وقد سمى النبي ﷺ هذه السورة بهذا الاسم كما في الأحاديث السابقة.

قال الإمام البقاعي:(اسم كل سورة مترجم عن مقصودها؛ لأن اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسماه عنوانه الدال إجمالا على تفصيل ما فيه)[٢].

وعند التدبر نجد أن ثمت تناسباً بين الكهف وبين الفتن، فقد ارتبط الكهف والغار بالهرب من مخوف، وصار مأوى للمشرد المطرد.

ولذا أكاد أجزم أن سبب اختيار هذا الاسم لها هو كونها عصمة لكل خائف من الفتن، كما كان الكهف عصمة لأصحابه من فتنة قومهم.

وقد تعددت الفتن المذكورة في السورة أبرزها:

أ– الفتنة عن الدين الحق، وقد تكفلت قصة أصحاب الكهف بعلاجها، وذكرت أسباب الثبات عند حلولها.

ب– الفتنة بالحياة الدنيا وزينتها، واللافت للانتباه تشعب طرق السورة في علاجها، ولعل السبب في ذلك عمق هذه الفتنة، وتغلغلها في النفس، وعسر النجاة منها.

ج– الفتنة عند حلول أقدار الله المؤلمة، بالتسخط بالمقدور، وشكاية الخالق للمخلوق، وسوء الظن به، وقد تكفلت قصة موسى مع الخضر بالعلاج.

= أستاذا في جامعة أم القرى(ت:١٤٢٥هـ)انظر: عبد الرحمن حسن الميداني وآراؤه في العقيدة، ص١٦، ٣٧.

(١) انظر: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله للميداني، ص: ١٦.

(٢) نظم الدرر(١/١٨).

د– الفتنة بالجاه والسلطان، والمنزلة الرفيعة، وحاجة الناس، وتكفلت قصة ذي القرنين بعلاج هذه الفتنة، كما سيأتي في المبحث الرابع.

هـ– الغلو بالأنبياء والصالحين، ومسالك السورة في الوقاية وفي العلاج أكثر من أن تحصر، كما سيظهر في المبحث الخامس.

و– الفتنة بالمسيح الدجال، وقد جاء الربط بينها وبين السورة بخبر رسول الله ﷺ.

وثمت فتن متشعبة من هذه الفتن ذكرت في السورة، وسيتضح في نهاية هذا البحث أن السورة منهج متكامل لعلاج الفتن ماذكر فيها وما لم يذكر.

٤) معنى الفتنة:

قال الأزهري: (جماع معنى الفتنة في كلام العرب الابتلاء والامتحان، وأصلها مأخوذ من قولك: فتنت الفضة والذهب، إذا أذبتهما بالنار ليتميز الرديء من الجيد)[١].

وفي النهاية لابن الأثير:(يقال: فتنته أفتنه فتناً وفتوناً: إذا امتحنته.. وقد كثر استعمالها فيما أخرجه الاختبار للمكروه، ثم كثر حتى استعمل بمعنى الإثم، والكفر، والقتال، والإحراق، والإزالة، والصرف)[٢].

وقد تكررت كلمة الفتنة في القرآن الكريم أكثر من ستين مرة[٣]، وذكر ابن الجوزي أن معانيها تدور حول خمسة عشر وجها[٤].

---

(١) تهذيب اللغة(فتن)(١٤/٢٩٦).

(٢) النهاية في غريب الحديث(فتن)(٤/٤١٠).

(٣) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، مادة " فتن ".

(٤) انظر: نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، باب الفتنة(١/٤٧٨).

والمراد بالفتنة في هذا البحث: الابتلاء والاختبار بشر أو خير[١]، مما يميز صدق مظهر الإيمان أو كذبه، وثباته أو انقلابه، وإيثاره العاجلة أو الآجلة.

وهذا المعنى هو المذكور في قوله تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ { العنكبوت: ١، ٢}.

وقوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾{الأنبياء: ٣٥}.

فتبين أن الفتنة ليست شرا محضا، بل هي سبب خير وهداية، كما أنها سبب شر وغواية[٢] كما قال موسى عليه السلام: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ ﴾{الأعراف:١٥٥ }.

وسر تسمية ابتلاء المؤمن بالفتنة التشبيه بفتن الذهب بالنار، ليعرف جيده من رديئه، وكذلك الفتنة تكشف صدق مظهر الإيمان من كذبه، وصبره من خوره، وقوته من ضعفه.

٥) أنواع الفتن:

تكرر ذكر الفتن كثيرا في الكتاب والسنة، وتعددت أساليب عرضها، كالتحذير، أو بيان الأسباب، أو طرق النجاة، أو مواقف الناس منها، أو اعتبارها شرا أو خيرا باعتبار مآلاتها ونتائجها، ومع ذلك فالفتن باعتبار من امتحن بها نوعان:

---

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر، كتاب الفتن(٣/١٣) والفتنة وموقف المسلم منها، ص:١٦.

(٢) انظر: إغاثة اللهفان(١/١١-١٤).

النوع الأول– الفتنة الخاصة:

وهي التي تمس الفرد في خاصة نفسه، كالغنى والفقر، والصحة والمرض، ونحو ذلك من السراء والضراء، وهي المذكورة في قول الله تعالى:﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ﴾{البقرة: ١٥٥}.

وقوله:﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾{الأنفال :٢٨}.

النوع الثاني– الفتنة العامة:

وهي التي تصيب المجتمع، أو الأمة، من تسلط بعضهم على بعض، أو الابتلاء بعدو، أو مرض عام، أو ضوائق اقتصادية، أو كوارث كونية، قال الله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾(الأنفال :٢٥).

ويندرج في الفتنة العامة تسلط الأعداء بالغزو الإعلامي في هذا العصر، وانبهار الأمة المسلمة بالمنجزات الحضارية للأمم الكافرة، مع كف الأمة عنها، واشغالها بنفسها، وقد قال النبي ﷺ وهو يعدد فتناً:" ثُمَّ فِتْنَةُ الدُّهَيْمَاءِ[1] لَا تَدَعُ أَحَدًا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا لَطَمَتْهُ لَطْمَةً، فَإِذَا قِيلَ انْقَضَتْ تَمَادَتْ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، حَتَّى يَصِيرَ النَّاسُ إِلَى فُسْطَاطَيْنِ فُسْطَاطِ إِيمَانٍ لَا نِفَاقَ فِيهِ وَفُسْطَاطِ نِفَاقٍ لَا إِيمَانَ فِيهِ"[2].

---

(١) الدهيماء: الفتنة المظلمة، وقيل: الداهية، والتصغير للتعظيم. انظر: النهاية في غريب الحديث(دهم)(٢/١٤٦)

(٢) رواه أحمد(١٠/٣٠٩) وأبو داود، كتاب الفتن، ح(٤٢٤٢)(٤/٩٤) والحاكم(٤/٤٦٦)وصححه ووافقه الذهبي، كما صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، ح(٤١٩٤)(٢/٧٧٢).

وكذلك يندرج في الفتنة العامة والخاصة فتنة السراء وترادف النعم؛ مما يحمل على الأشر والبطر، والتكاثر والتفاخر، والقدرة على الشهوات المحرمة، وحلول آفات الترف، مما يؤذن بنذير شؤم للفرد وللجماعة.

ومن خلال السبر للتأريخ وللواقع يتبين أن القدرة على موجهة فتنة الضراء أيسر من مواجهة فتنة السراء، مما يحمل المؤمن على تتبع مسارب الفتن، والاستعاذة بالله من مضلاتها، الظاهر منها والباطن.

وموضوع الفتن واسع، والمصنفات فيها مشهورة، وإنما هذه لمحة بين يدي البحث.

المبحث الأول: الفتنة عن الدين الحق

من سنن الله المطردة وقوع الصراع بين الحق والباطل، واشتعال الحرب الضروس بين الفئة المؤمنة والفئة الكافرة في كل زمان، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾(البقرة: ٢١٧).

ويؤجج هذه الحرب الضروس ما فُطر عليه الإنسان من رغبة في انتصار معتقده، وانتشار طرائقه، كما قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ (البقرة: ١٢٠)، كما فطر على موالاة أهل دينه، ونصرة منهجه، وحبه له، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾(النساء: ١١٥).

قال ابن كثير:(أي: إذا سلك هذا الطريق جازيناه على ذلك بأن نحسنها في

صدره ونزينها له)[1].

ويضاف إلى ذلك رخاوة براهين الباطل، وسخافة حججه، وتعرية الحق له أمام أتباعه، كما قال تعالى:﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ (الأنبياء: ١٨)، ثم تسلط الشيطان على الإنسان متى ما تولاه، كما دل عليه قوله تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾﴿مريم: ٨٣)واستلام مقوده كما قال:﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(الإسراء: ٦٢).

والاحتناك: وضع المقود في الحنك[2] فلا يستطيع الاعتراض أو المخالفة.

كما يضاف حسابات دنيوية، ومخاوف من المخالف، كما قال فرعون:﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾(غافر:٢٦).

وقال:﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾ (الشعراء: ٥٦)

وهذا يجعل الصراع متأججاً بين الحق والباطل، ما بقي على الأرض مؤمن وكافر.

وقد ذكرت السورة قصة أصحاب الكهف، الذين هددهم قومهم بالرجم بالحجارة[3]، أو الموافقة على الباطل، لكنهم انتصروا على ضعفهم البشري، وفرّوا بدينهم، مما جعل قصتهم مثلاً يحتذى في درء الفتنة عن المعتقد، والنجاة بالدين زمن الضعف، وعدم القدرة على مواجهة الباطل، لا باللسان ولا بالسنان.

---

(١) تفسير ابن كثير(١/٥٦٨).

(٢) انظر: معالم التنزيل(٥/١٠٤).

(٣) كما دل عليه قولهم فيما أخبر الله﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾.

ولعل الوقفات التالية تجلي مغزى القصة، وترشد إلى ما ينبغي فعله متى ما كانت الدولة لغير المسلمين، وتكرر مشهد الابتلاء.

الوقفة الأولى– القصة إجمالاً:

يذكر القرآن قصة أصحاب الكهف بطريقته الغالبة في سرد القصص، وهي الإجمال، والاكتفاء بمواطن العبرة، التي تبني العقيدة، وتثبّت الإيمان، وترشد إلى صراط مستقيم.

أما التفصيلات التي يعتني بها المؤرخون عادة كذكر الزمان والمكان والأسماء ونحو ذلك، فإن منهج القرآن الإعراض عنها[١] ؛ لأن له هدفاً معيناً، وقصداً منشوداً، وهذه التفريعات لا تخدم الهدف المقصود.

يَعرض القرآن قصة فتية آمنوا بربهم في بيئة وثنية جائرة، لا تقبل اعتناق الدين الحق، ولا تطيق رؤية معتنقه.

هؤلاء الفتية ليسوا بأنبياء مطالبين بالمواجهة، ولا بأقوياء يستطيعون المقاومة، فآثروا الفرار بدينهم، واعتزال قومهم، وهجر ديارهم.

وتركز القصة على ملامح القوة في هؤلاء الرجال؛ فهم فتية، مما يعني بلوغ الأشدّ في الجسم والعقل والإرادة[٢].

وهم أقوياء بإيمانهم، أقوياء بهمتهم، أقوياء في إنكارهم على قومهم، يظهر هذا في قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ

(١) انظر: الواضح في علوم القرآن،ص: ١٨٤، وآداب التعامل في ضوء القصص القرآني، ص:٧، والمقدمة السابعة في التحرير والتنوير(١/٦٤).

(٢) يطلق الفتى على الكامل الجزل من الرجال، وله معانٍ أخرى، انظر: تهذيب اللغة(فتا)(١٤/٣٢٨).

قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾{ الكهف: ١٣ – ١٥ }.

ولقد كان ملك مدينتهم جباراً من الجبابرة الظلمة[1]، ويظهر من قول الفتية:﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴾ أن هذا الجبار لا يدع مؤمناً يعبد الله وحده، بل إما القتل أو الموافقة على الشرك، فقرروا الهرب قبل الطلب، والانزواء في كهف حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا.

ومعلوم – بداهة– أن الكهف مكان فرار، لا موضع استقرار، فهم لجؤوا إليه حتى يروا رأيهم، ويمضوا في طريقهم، بعد هدوء الطلب، وغياب الرقيب.

ولكن الله تعالى أراد أن يجعلهم آية، ومظهر رحمة، وموطن عناية؛ ليعلم المؤمنون الذين قالوا ربنا الله فُنقم عليهم، أن الله حافظ من حفظه، ومؤوي من آوى إليه.

لقد ذكرت القصة لجوءهم إلى ربهم، وشعورهم بقربه كما في قوله تعالى:" ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ "وقوله:" إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" وقوله:"وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا" ويشعر قارئ

القصة بإيمان هؤلاء الفتية العميق، وثقتهم بربهم، وأنسهم به.

وفي المقابل نجد أن الله قابل إحسانهم بإحسانه، وثقتهم به برعايته،

(١) روى ذلك ابن أبي حاتم عن ابن عباس، بإسناده صحيح كما في تغليق التعليق(٤/٢٤٦).

وتوكلهم عليه بعنايته، يظهر هذا في قوله تعالى:﴿ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ وقوله –جل جلاله–:﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ وقوله:﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ﴾{ الكهف: ١٧}.

ثم تذكر القصة عناية الله بهم في كهفهم مدة نومهم، وتمضي القصة في بيان حالهم بعد يقظتهم، واطلاع الناس عليهم، واختلافهم في عددهم ومدة مكثهم(١).

وتختتم القصة بقول الله تعالى:﴿ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾{ الكهف: ٢٦}، فهو الذي تولاهم بلطفه وكرمه، ولم يكلهم إلى أحد من خلقه(٢).

وهكذا يكون آخرها كأولها، يربط القلوب بالله تعالى، ويدرأ سبّة الشريك عنه سبحانه.

الوقفة الثانية– عوامل ثبات أصحاب الكهف عند الفتنة:

إن الابتلاء من أجل المعتقد، والصد عن الدين، سنة الله في أوليائه، وستستمر ما بقي على وجه الأرض حق وباطل؛ ولذا يحسن بالمسلم أن يعي أسباب نجاح هؤلاء الفتية في صراعهم مع قومهم، وعوامل ثباتهم على دينهم، رغم مكرٍ كبار، يصل إلى حد التصفية الجسدية إذا لم يُجْد ما دونها.

وتعظم أهمية استلهام العبر من القصة في عصرنا الحاضر– الثلث الثاني من القرن الخامس عشر للهجرة – حيث يشعر أعداء الحق أن الإسلام قادم لا

(١) انظر تفسير الآبات في: تفسير ابن جرير(١٩٧/١٥) والبغوي(١٤٣/٥)والزمخشري(٤٧٣/٢) والقرطبي(٣٥٦/١٠).

(٢) انظر: تفسير السعدي، ص:٤٧٥.

محالة، وأنه بدأ يغزوهم في عقر ديارهم، فتسلطوا عليه تشويهاً، وعلى أهله قتلاً وتشريداً، واستعانوا بمن يوافقهم في العداء للحق من المبتدعة والمرتدين.

ويمكن إجمال عوامل ثبات هؤلاء الفتية، ونجاتهم بدينهم فيما يلي:

١- قوة الإيمان بالله:

لقد أشاد الله تعالى بإيمان هؤلاء الرجال، وجعله أول صفة لهم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ ثم بين أن هذا الإيمان مبني على برهان، بدلالة قولهم إنكاراً لشرك قومهم: ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ ولن يطالبوا غيرهم بما لم يلزموا به أنفسهم، وفي هذا دلالة على أن الاستدلال بعدم الدليل على عدم المدلول طريقة صحيحة عقلا ومنطقا(١).

إن العقيدة الراسخة تقوم على برهان بيّن، ومستند صحيح، وإلا فهي ادعاء وتقليد، لا تصمد أمام أعاصير الفتن.

كما أن الإيمان القوي، المبني على أسس راسخة، وقواعد ثابتة، يقلب الموازين ويبدل الاهتمامات، ويجعل للإنسان شغلاً غير بدنه، وعاجل دنياه.

وهنا إشارة بأوجز عبارة إلى ما يمكن أن نسميه: قاعدة الانطلاق في هذه الحياة، أو محور الارتكاز، والذي على ضوئه تتحدد الأهداف، وتتعين الغايات، ويعرف المرء القيم التي يجتهد لتحصيلها، وويحدد موازين الربح والخسارة.

إن الناس من ناحية قاعدة انطلاقهم صنفان:

١) مؤمن بالله، وباليوم الآخر، فهذا ينطلق من الاستسلام لله، ورجاء موعوده، والحرص على الفوز المذكور في قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ

(١) انظر: التفسير المنير(١٥/٢٢٠).

﴿ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾{آل عمـــران:١٨٥} وكل ما عدا ذلك يهون ويرخص.

لقد أرسلت قريش مندوبها عتبة بن ربيعة[١] إلى رسول الله ﷺ لعله يكف عنهم دعوته، فعرض عليه السيادة والمال والنساء، فقال رسول اللهﷺ: أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، فقرأ عليه(حم السجدة) فرجع عتبة إلى قريش فقال لهم:(يا معشر قريش، اتركوا الرجل واعتزلوه، فو الله ما هو بتارك ما هو عليه)[٢].

٢) غير مؤمن، ويشمل الكافر، والمتردد، وعابد الهوى، ومن يعبد الله على حرف، فهذا قاعدة انطلاقه دنياه، وعاجل معاشه، وسلامة بدنه[٣]، ولذا يحرص أحدهم على الحياة:﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ﴾ {البقرة: ٩٦} بغض النظر عن نوعها وقيمتها، قال الجزائري:(التنكير فيها لتعم كل حياة ولو كانت ذميمة)[٤].

إذا عرف هذا، فالواجب على العاقل أن يهتم في زمن الفتن بتقوية إيمانه، والتعرف على الله، والبعد عن أسباب الكفر، والإكثار من العبادة، وفي الحديث: «عبادة في الهرج كهجرة إلي»[٥].

---

(١) هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف كبير قريش وأحد ساداتها، قتل مشركا يوم بدر. انظر: السيرة النبوية(٢/٦٢٥،٦٢٢) والأعلام(٤/٢٠٠).

(٢) رواه ابن عساكر في تأريخ دمشق(٣٨/٢٤٤) ونحوه الحاكم(٢/٢٥٣) وصححه، ووافقه عليه الذهبي.

(٣) انظر: مفتاح دار السعادة(١/١٢٥)

(٤) أيسر التفاسير(١/٨٥).

(٥) رواه مسلم، كتاب الفتن، باب فضل العبادة في الهرج ح(٢٩٤٨)(٤/٢٢٦٨).

٣) اعتزال الفتنة، والفرار بالدين:

إن وسيلة هؤلاء الفتية للنجاة بدينهم هي الاعتزال والفرار: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾{الكهف:١٣}، **ولم يكتفوا باعتزال معبودات قومهم، وهو يعني الرفض والبراءة، واعتقاد بطلانها، بل اعتزلوا قومهم بأبدانهم.**

وقد جاء في السنة ما يدل على وجوب اعتزال الفتنة، وذلك في قول رسول الله ﷺ:« من سمع بالدجال فلينأ عنه»(١).

ومن هذا المنطلق شرعت الهجرة، قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾{العنكبوت:٥٦}.

إن رفض ما يعبد من دون الله واعتزاله بالقلب فرض عين على كل مسلم، بل هو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله(٢).

أما الاعتزال بالأبدان فليس هو المختار في كل الأحوال(٣) **فقد جاء في الحديث: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»**(٤).

---

(١) رواه أحمد في المسند، ح(١٩٨٧٥)(١٠٧/٣٣) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وصححه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير ح(٦٣٠١)(١٠٨٠/٢).

(٢) انظر: التفسير القيم، ص: ١٩٠.

(٣) انظر: فتح الباري لابن حجر(٤٣/١٣).

(٤) رواه أحمد في المسند، ح(٥٠٢٢) والترمذي، كتاب صفة القيامة ح(٢٥٠٧)(٦٦٢/٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، ح(٦٦٥١)(١١٢٩/٢).

لكن إذا كانت الفتنة أقوى من قدرة المؤمن، وأكبر من صبره وتحمله، أو كان ممن يتأثر ولا يؤثر، فالمختار العزلة، بل قد تكون واجبة، قال النووي: (مذهب أكثر العلماء أن الاختلاط أفضل بشرط رجاء السلامة من الفتن)[١]، ويؤكد هذا أمر النبي ﷺ بلزوم جماعة المسلمين وإمامهم عند ظهور الفتن، ولما سئل: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟! قال: «فاعتزلوا تلك الفرق»[٢].

٤) إيثار الآخرة على الدنيا:

في قول الفتية: ﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ **تلويح إلى سر هذا النجاح، وهو الزهد في متاع الحياة الدنيا، بثبات لا يتزعزع، وقوة لا تتضعضع، ولو خسروا كل شيء، من اموال ومتاع، وديار وجوار.**

لقد صار هذا الكهف الضيق، الموحش، الفاقد لكل أسباب الحياة، هذا الكهف صار عندهم مصدر رحمة الله، وموضع رفقه، ومنبع رأفته.

كيف لا ؟! وهو طوق النجاة، وسفينة النجاح، وصمام الأمان، لحفظ الإيمان.

إن متاع الحياة الدنيا وزينتها، فضلاً عن الضروري منها، متغلغل في النفس البشرية، يملك القلوب، ويأسر الأفكار، وما كان الزهد فيه، ولا يكون، إلا بمعرفة تامة بحقيقة الدنيا والآخرة، وانكشاف الغطاء عن صورتهما من غير غبش ولا تزييف، وحينئذٍ تصغر الأولى؛ لعظمة الأخرى.

ومن اللافت من بلاغة القرآن، وعجيب طرائقه في التربية، أن الله تعالى

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي(١٣/٣٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب الفتن، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة، ح(٣٤)(٩/٩٣).

لما حث على الفرار بالدين والهجرة، عالج خلجات الأفئدة، ونوازع الهوى، ونوازغ الأنفس، التي تعوق عن امتثال أمر الله، فقال تعالى:﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾(العنكبوت: ٥٦-٦٠).

ففي قوله:﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾ تهوين من شأن الموت بسبب الهجرة، إذ لا بقاء لمن لا يهاجر.

وفي قوله:﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ حث على تحمل المشقة التي تنال المهاجر.

وفي قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ قطع لوساوس الشيطان، وتخويفه، سواء على الحياة، أو على الرزق، باستشعار قرب الله، والثقة به، وأنه كافٍ من توكل عليه.

وفي قوله:﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا ﴾ تعظيم لشأن الآخرة، وأن الخسارة كل الخسارة في التفريط في هذا النعيم، طلبا لراحة قصيرة، ومتاع دنيوي قليل.

وفي قوله:﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ ﴾ تطمين للأنفس في قضية الرزق، وهو الهاجس الأكبر، لكل من يهم بالهجرة[1].

وفي قوله:﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ تهوين من شأن الدنيا، وتصغير لها، حتى

(١) انظر: تفسير الخازن(٣/٤٢٦) والفتوحات الإلهية بتوضيح الجلالين(٣/٣٨١).

تتحفز الأنفس للزهد فيها، والإقبال على الحياة الحقيقية في الآخرة[١].

وبهذه الجمل القصيرة، تتذلل العقبات التي تحول بين المسلم وبين الفرار بدينه.

٢- المجاهدة وقوة العزيمة:

يستشعر التالي لقول الله تعالى:﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾{الكهف:١٣، ١٤} أن ثمت رهقا ومشقة اكتنفت هؤلاء الفتية، وأن هناك ترددا بين الإقدام والإحجام، ولكن بتوفيق الله وإعانته أولاً، ثم بالمجاهدة ثانياً، ثم بقوة العزيمة وصدق الإرادة ثالثاً، تيسر لهؤلاء ما يعجز عنه الكثيرون.

ونستطيع أن نستنبط من تقديم جملة ﴿ ءَامَنُوا۟ ﴾ على جملتي﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ و﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ قاعدة ربانية في السلوك البشري، وهي:أن الجهد البشري له اعتباره في السنن الإلهيةً، فهو الخطوة الأولى للفلاح، فالله لايضيع عمل عامل، فمن رام تغيير الأحوال، وجلب المصالح، ودرء المفاسد، في نفسه أو أمته فعليه أن يبذل ما في وسعه من أسباب، وحينئذٍ يترادف المدد الرباني، ويتواصل العون الإلهي، والأدلة على هذه القاعدة أكثر من أن تحصر، وإليك بعضاً منها:

١– قال تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾(الرعد: ١١).

(١) انظر تفسير الآيات في: التفسير البسيط(١٧/٥٤٧) والتحرير والتنوير(٢١/٢١) وأيسر التفاسير(٤/١٤٧) والتفسير المنير(٢١/٢٢).

٢- قال تعالى:﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾(الليل:٥-١٠) فنظام السببية جلي فيها.

٣- في الحديث القدسي يقول الله تعالى:« إن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً»[١] فربط تقرب الرب بتقرب العبد.

ومن هذه النصوص وغيرها كثير، يتبين أن الجهد البشري له وزنه عند الله، وقد ربط به كثيرا من عطائه وحرمانه، وثوابه وعقابه، على ضوء قوله تعالى:﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ ﴾{ محمد: ٧ } وقوله: ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ {الرحمن: ٦٠}.

قال ابن القيم:(سبق في حكمه وحكمته أن الغايات المطلوبة لا تنال إلا بأسبابها التي جعلها الله أسبابا مفضية إليها، ومن تلك الغايات أعلى أنواع النعيم وأفضلها وأجلها، فلا تنال إلا بأسباب نصبها)[٢].

ولنتأمل هذا النص البديع، المحفز للسلوك البشري، وهو قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾{الأعراف:١٧٦}[٣].

٤- فالله – تعالى- علل عدم رفع المذكور لا في الدنيا ولا في الآخرة بأنه لم يرفع نفسه، ولم يتحمل ضريبة الرفعة ومشقتها.

إن من لا يبذل جهداً في تحصيل المرغوب، والنجاة من المرهوب، هو في

---

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله: ويحذركم الله نفسه، ح(٣٤)(٩/٢١٦).

(٢) مفتاح دار السعادة(١/٢٤).

(٣) لابن القيم كلام بديع حول هذه الآية، انظر الفوائد له، ص:١٨٧.

عداد الأموات، الذين لا أثر لهم في الحياة، وهو أهل لضرب التيه عليه الذي ضرب على أمثاله لما قالوا: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ فكان الجواب الإلهي: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۚ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ {الأعراف: ٢٤، ٢٥}.

وهكذا كل من قعد به العجز والكسل، سواء في أمور دينه أو دنياه، سيحرم مما يأمله، ويتناءى عنه ما يقصده.

قال ابن القيم:(فالمعونة من الله تنزل على العباد على قدر هممهم وثباتهم، ورغبتهم ورهبتهم)[١].

وبناء على هذه القاعدة في معرفة السنن الربانية، فإن هؤلاء الفتية على دراية بها، فهم: «آمنوا» فزادهم الله هدى، وأقدموا بعد تردد فربط على قلوبهم، وسألوا ربهم فأمدهم، وبذلوا ما في وسعهم، فنشر لهم رحمته، وهيأ لهم من أمرهم مرفقاً.

ومن دقائق طرائق القرآن في الإرشاد إلى هذه السنة الكونية – وهي اعتبار الجهد البشري، وتقديره، وكونه سببا للتوفيق الإلهي– أن الله تعالى في مطلع سورة العنكبوت–وهي السورة المخصصة لعلاج الفتن[٢]– قال: ﴿وَمَن

(١) الفوائد ، ص:١٨١.

(٢) عالجت السورة أكثر الفتن التي تعترض المؤمن، ومن أبرز ذلك:

١) افتتحت السورة ببيان امتحان المؤمنين الأولين واللاحقين، وأن ذلك أمر حتمي لكل من قالوا: «آمنا بالله».

٢) الفتنة بالوالدين الكافرين.

٣) الفتنة بعذاب الكفار للمؤمنين. =

جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ﴾{العنكبوت:٦} وختمها بقوله:﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ ﴾{العنكبوت: ٦٩} ليغرس في قلب المؤمن الذي تعترضه فتن كقطع الليل المظلم، أن التوكل على الله،، لا يعني إلغاء دور الإنسان، أو التفريط في المقدور عليه من الأسباب.

وقد أكدتُ على هذه القضية البدهية عند المتدبر للكتاب والسنة، لأننا نرى بعض المسلمين يغفلون عند اشتداد الأزمات عما جعله الله وسيلة لدفع الناس بعضهم ببعض، احتجاجا بالقدر(١)، أو جهلا بسنن الله الكونية.

٥– معرفة الشرك وخطر الردة:

الشرك بالله قبيح بميزان الشرع، وبمعيار العقل، لأنه ينم عن جهل بالله، واستخفاف به، إذ كيف يسوى بالله غيره ؟!، سواء في ادعاء الخلق، أو تألّه القلب، أو التوجه إلى غير الله بشيء من العبادات والقرب.

إن منطلق الشرك ومبعثه ومنبعه أحد أمرين:

الأول– تحقير الله وتصغيره باعتباره كبير آلهة كثر، كما هو معتقد القدامى من الرومانيين واليونانيين(٢) والبدائيين من الوثنيين(٣) ؛ ولذا يوجهون العبادات

= ٤) نماذج من فتنة بعض الأنبياء فنوح مكث ألف سنة فصبر، وإبراهيم جابه قومه، فأحرق ونفي من بلده، وهكذا ابتلي لوط وهود وصالح وشعيب وموسى عليهم السلام.

٥) فتنة أهل الإسلام بأهل الكتاب. ٦– الفتنة بالأولياء، ودعاؤهم من دون الله.

٦) الأمر بالهجرة، ومعالجة ما يختلج في الأنفس بسببها.

٧) علاج القضية الغائرة في الأنفس وهي حب المال والخوف من الفقر، وإيثار الدنيا على الآخرة.

(١) انظر: القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة، ص:٢٩٣.

(٢) انظر: مقدمة في آثار الرومان . د. فايز يوسف محمد، ص: ١٠٥.

(٣) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب، ص:٤٢٣.

والقرب إلى كل الآلهة، وإن كان لسيدهم – بزعمهم – نصيب أكبر، وهؤلاء هم المعنيون بقول الحق –سبحانه–﴿ قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ﴾(الإسراء: ٤٢).

الثاني– تعظيم مخلوق، ورفعه فوق منزلته، وإضفاء صفات الألوهية عليه، من القدرة على ما لا يقدر عليه مخلوق، وعلم الغيب، ومنح البركات، ودرء الكروب، وكشف الضر، وإجابة الدعاء، ومن ثم تتعلق القلوب به، وتتخذه نداً لله، وتصرف له العبادات[1] كما أخبر الله عن خليله أنه قال لقومه:﴿ إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا ﴾(العنكبوت: ١٧).

وبهذا يتبين أن الشرك كذب وافتراء، وجهل بالله، واستخفاف به، واستهزاء به، ولذا جعله الله الظلم العظيم، والذنب الذي لا يغفر إلا بالتوبة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴾(النساء: ٤٨).

إذا تبين هذا فإن قول الفتية:﴿ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذٗا أَبَدٗا ﴾(الكهف: ٢٠) مع قولهم في مطلع القصة:﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴾(الكهف: ١٥).

وقولهم:﴿ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطٗا ﴾

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم(٢/ ٧٨٠، ٧٧٦).

(الكهف:١٤) ينمّ عن معرفة تامة بحقيقة التوحيد، وخطورة الشرك وقبحه، وسوء عاقبته، مهما كانت المبررات، أو الضغوط، أو كان القوم كلهم والغين فيه..

إن هذا اليقين بعدم فلاح المرتد، يهوّن على المؤمن تحمل المشقة في سبيل الهجرة إلى الله، والفرار بالدين، واعتبار ذلك نصراً وربحاً لا يقدر بثمن، ولو خسر نفسه، فضلاً عن ولده وأهله وماله.

٦- إنكار المنكر:

يظهر من قول الفتية: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ ومن قولهم: ﴿ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ قوتهم في إنكار المنكر، فهم قد استبشعوا المنكر في قلوبهم، وامتعضوا منه، ثم نطقوا بألسنتهم ما عبروا به عن إنكارهم، ثم اعتزلوا المنكر بأبدانهم لما عجزت أيديهم.

وهذه خطوة لا بد منها للنجاح في صد الفتنة، والسلامة منها، وخاصة في أول أمرها، إبان شدة فورتها، وقوة ضغطها على حس المؤمن، قال تعالى: ﴿ وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ ﴾(النساء: ١٤٠) ؛ لأن المؤانسة والمجالسة قد تفضي إلى استمراء الباطل، والرضى به، وعدم الاستيحاش منه، بل قد تفضي إلى الوقوع فيه[١].

٧- التوكل على الله واستمداد العون منه:

إن قوة المؤمن الحقيقية تنبع من توكله على ربه، واعتماده عليه، وطلب العون منه، والأنس بقربه، ويظهر هذا جلياً في قول الله تعالى: ﴿ إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ﴾(الكهف:١٠).

---

(١) انظر: تفسير البغوي(٣٠١/٢)وتفسير الرازي(٨٢/٦).

وقـــــــــــولهم: ﴿ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾(الكهف:١٦) فهم في الآية الأولى يدعون ربهم بدون حرف نداء، لشعورهم بالقرب حسب قواعد اللغة العربية[1]، وهم في الثانية يتفوهون بخبر، مما يدل على كمال الثقة بالله، وحسن الظن به.

ثم إن في القصة إيماءات ربانية، بل تصريحات بأن التوفيق والهدى، هبة إلهية، يمنّ بها على الذين صدقوا في طلبها، واجتهدوا في تحصيلها، ويتضح هذا من قول الحق سبحانه:﴿ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى . وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾(الكهف: ١٤، ١٥) .

وقوله:﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ﴾(الكهف:١٧).

وقوله:﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ ﴾(الكهف: ٢٦).

إن هذه النصوص تغرس في فؤاد المسلم، وخاصة وقت الأزمات:

أ- أنه ضعيف بنفسه، قوي بربه.

ب- أن التوفيق هبة من الله تعالى كما قال العبد الصالح: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾(الأعراف: ٨٨).

ج- عدم الاغترار بما يحصل عليه العبد من فلاح، بل ينسب ذلك إلى المنعم الحقيقي، ويشكره عليه.

د- الشعور بمعية الله وقربه، مما يسكب في القلب أنساً وفرحاً ورضى، يهوّن على النفس عناء الفتنة، وصعوبة الطريق.

٨- فعل الأسباب:

إن الإيمان بالله، وصدق التوكل عليه، واليقين بأنه لا حول للعبد ولا قوة

(١) انظر: أوضح المسالك(٣/٧٢).

إلا به، وغير ذلك من المعاني الإيمانية، التي قصد بها تعبيد القلب لربه، وتزكيته بالصلة به، والشعور بمعيته، كل ذلك لا يعني الإعراض عن الأسباب المادية.

وقد سبقت الإشارة إلى شيء من ذلك، ولكن هنا أشير إلى شيء متمم لما سبق من زاوية أخرى، فالتالي للقصة بتدبر يجد فيها بروزاً لنظام السببية من ناحيتين:

الأولى: حفظ الفتية لأنفسهم:

فالقصة توحي بشعورهم بأن دينهم وأبدانهم أمانة في أعناقهم، وعليهم بذل الوسع في الحفظ والرعاية، ولذا فعلوا الأسباب التالية:

١- الاعتزال والاختفاء في الكهف: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾(الكهف: ١٦).

٢- التزود بالنقود: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾(الكهف: ١٩).

٣- التلطف والتخفي عند الرغبة في شراء الطعام، كما يظهر من وصيتهم لصاحبهم: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾(الكهف: ١٩).

الثانية: حفظ الله لهم:

لقد ذكر الله عدة أسباب يظهر للقارئ أنها سبب حفظهم مثل:

١- اختيار الله لهم كهفاً لا غاراً، مما يعني السعة، وتجدد الهواء[1]، قال

(١) انظر: تفسير السمرقندي(٢/٢٩٤) والوسيط للواحدي(٣/١٣٩)والتحرير والتنوير(١٥/٢٧٩).

الواحدي:(كانوا في متسع من الكهف، ينالهم فيه برد الريح، ونسيم الهواء)[١].

٢- ميل الشمس عن أجسادهم يميناً وشمالاً، مما يعني أنها لا تصلهم بأشعتها فتجففهم، وليست بعيدة عنهم فيتعفنون من الرطوبة[٢].

٣- تقليبهم ذات اليمين وذات الشمال، لئلا تأكل الأرض ما يليها من أبدانهم[٣].

٤- وجود كلب باسط ذراعيه بالوصيد، مما يرهب السباع ونحوها.

٥- كون الرائي لهم يحسبهم أيقاظاً وهم رقود، وهذا يثير الرهبة أيضا.

٦- إلقاء الرعب على من يدنو منهم، حتى لا تمسهم يد لامس، قال الواحدي(:قال المفسرون: هو أن الله تعالى منعهم بالرعب لئلا يراهم أحد)[٤].

إن هذه الأسباب لا تعني شيئاً في حفظ نيام مدة تزيد على ثلاثمائة سنة، لولا عناية الله بهم، وحفظه لهم بغير هذه الأسباب المحسوسة، ولعل في ذكرها ربطا للمسلم بنظام السببية، وحمله على مراعاتها في جميع شؤون حياته، كما هي سيرة رسول الله – ﷺ– ومنهجه، في حربه وسلمه.

---

(١) التفسير البسيط(٥٥٧/١٣).

(٢) انظر: تفسير ابن جرير(٢١١/١٥) والسمرقندي(٢٩٤/٢) والتفسير البسيط للواحدي(٥٥٧/١٣).

(٣) انظر: المصادر السابقة.

(٤) التفسير البسيط(٥٦٣/١٣).

وبما سبق يتبين أن قصة أصحاب الكهف نموذج رائع، وتطبيق عملي للنجاح في صد الفتنة عن الدين، والصبر على قسوة المخالف.

ولقد حشدت القصة أسباب النجاح المادية والمعنوية، الظاهرة والباطنة، مع استرواح الفرج، وانتظار اليسر بعد العسر، كما قال أصحابها: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾(لكهف: ١٦).

المبحث الثاني: الفتنة بالحياة الدنيا وزينتها

فطر الإنسان على حب الدنيا، والتعلق بها، ثم هناك محفزات لهذا التعلق، كالضرورة إلى المطعم والمسكن والمنكح، ثم الحاجة إلى التحسينات وسائر النفقات، ثم التكاثر والتظاهر والتفاخر، مما جعل الحياة الدنيا ضاغطاً قوياً على حس المؤمن، وقد تصرفه عن الحق، أو عن كمال الرشد، وتشغله عن الاستعداد لدار المعاد.

وبما أن القرآن كتاب تربية وتزكية[1] فقد أولى هذا الجانب عناية خاصة، وأعلن للمؤمنين قوله: ﴿ وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾(الأنفال: ٢٨) كما نعى الكافرين ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(النحل: ١٠٧) كما علل ردة المرتدين بأنهم: ﴿ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾(النحل: ١٠٧)، وأنّب أصحاب الجحيم بقوله: ﴿ أَذْهَبْتُمْ

---

(١) التزكية هي الهدف الثاني من أهداف بعثة الرسول –ﷺ– المذكورة في قول الله تعالى: "هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ "(الجمعة: ٢).

طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا ﴾(الأحقاف: ٢٠).

وحيث إن سورة الكهف خصصت لعلاج الفتن، فقد عالجت هذه القضية علاجاً حاسماً، يقتلع جذورها، ويجفف منابعها، ولا يكتفي بتشذيب ظواهرها، ولعل في الوقفتين التاليتين ما يجلي طريقة السورة في العرض والعلاج:

أولاً: عرض السورة للمظاهر الدنيوية المفتتن بها:

تكرر في السورة ذكر المظاهر الدنيوية، التي تفتن الإنسان في العادة، ومن ذلك:

١) الزينة: وقد ذكرت في ثلاثة مواضع:

أ- في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةً لَّهَا ﴾(الكهف: ٧).

ب- في قوله تعالى:﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾(الكهف: ٤٦).

ج- في قوله تعالى:﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾(الكهف: ٢٨).

٢) المال: وقد ذكر باعتباره فتنة في أربعة مواطن:

أ- في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾(الكهف: ٤٦)

ب- في قول صاحب الجنتين:﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴾(الكهف: ٣٤).

ت- في قول المؤمن المحاور:﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ﴾(الكهف: ٣٩).

ث- في قوله تعالى:﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ ﴾(الكهف: ٣٤) سواء على قراءة الجمهور بضم

الثاء والميم[١] فقد صح عن ابن عباس من رواية ابن أبي طلحة[٢] أنه كان يقرؤها كذلك ويفسرها بأنواع المال[٣]، وصح ذلك أيضاً عن مجاهد[٤] وقتادة[٥].

أو على قراءة عاصم وأبي جعفر «ثَمَر» بفتح الثاء والميم[٦]، فالمراد صنوف المال، لا ثمار الأشجار فحسب، ويدل على ذلك:

١–أن إطلاق الثمر على المال ثابت في اللغة، قال ابن منظور:(الثمر: حمل الشجر، وأنواع المال)[٧].

وقال الأزهري:(والثمر: أنواع المال)[٨].

---

(١) قرأ الجمهور «ثُمُر» بضم الثاء والميم، انظر: كتاب السبعة، ص: ٣٩٠ والتبصرة في القراءات: ص: ٢٤٨.

(٢) رواية علي بن أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس، صححها الطحاوي في مشكل الآثار(١٢٩/٣) وأبو جعفر النحاس في الناسخ والمنسوخ(٤٦١/١) والسيوطي في الإتقان(١٨٧/٢) والأصل فيها الانقطاع، لكن من صححها يرى أن الواسطة بينهما معروفة وهو ثقة. انظر: العجاب ص:٥٨.

(٣) انظر تفسير ابن جرير(٢٤٥/١٥).

(٤) المصدر السابق، وذكره البخاري تعليقاً في صحيحه، كتاب التفسير، تفسير سورة الكهف(١٦٣/٦).

(٥) تفسير ابن جرير(٢٤٥/١٥).

(٦) انظر: كتاب السيعة، ص:٣٩٠، والنشر(٣١٠/٢).

(٧) لسان العرب(ثمر)(١٠٦/٤).

(٨) تهذيب اللغة(ثمر)(٨٤/١٥).

وقال ابن فارس:(الثاء والميم والراء أصل واحد، وهو شيء يتولد من شيء متجمعاً، ثم يحمل عليه غيره استعارة)[١].

وقال الزمخشري:(« وكان له ثمر» أي: أنواع المال، من ثمّر ماله: إذا كثره... أي كانت له إلى الجنتين الموصوفتين الأموال الدثرة من الذهب والفضة وغيرهما)[٢].

وقد بين ابن عاشور أن أصل الاشتقاق من اسم الثمرة، على سبيل المجاز أو الاستعارة؛ لأن الأرباح تشبه ثمر الشجر، ثم شاع هذا المجاز حتى صار حقيقة[٣]، وإذا كان كذلك فلا فرق بين القراءتين في المعنى.

٢- إذا عرفت دلالة اللغة، فإن حمل الجملة القرآنية على التأسيس أولى من حملها على التأكيد[٤]، وقد ذكر الله تعالى ثمار الأشجار في قوله: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ فالأولى حمل قوله تعالى:﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ على صنوف المال الأخرى.

وبهذا يضعف ترجيح ابن جرير–رحمه الله– الذي يرى أن القراءة «ثُمُر» بالضم فحسب، وأن معناها: جمع ثمار، ككتب: جمع كتاب[٥]، ولم يذكر لترجيحه برهاناً، بل إن البرهان ضده من دلالة اللغة، ودلالة السياق، والنقل عن السلف، ولا ينبغي الاستدلال بتفسير ابن عباس لقراءة الجمهور على أن القراءة

(١) معجم مقاييس اللغة(ثمر)(١/٣٨٨).

(٢) الكشاف(٢/٤٨٤).

(٣) انظر: التحرير والتنوير(١٥/٣١٩).

(٤) انظر: قواعد الترجيح عند المفسرين(٢/٣٤١)

(٥) تفسير ابن جرير(١٥/٢٤٦).

الأخرى تختلف عنها في المعنى ؛ لأن هناك احتمالا أنه –رضي الله عنه – لم يعلم بتلك القراءة، إذ قد خفيت على ابن جرير[1] وهو ممن تصدى لجمع القراءات[2].

٣– البنون:

وقد ذُكِروا في المواضع السابقة التي ذكر فيها المال، وإن كان معنى: ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ أعم من الولد[3]، لكن الولد يدخل في ذلك دخولاً أولياً بدلالة قول المؤمن المحاور: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾[4] فالجملة رد على قول صاحب الجنتين: ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾.

والملفت للانتباه هذا الارتباط بين المال والبنين في كل المواضع في السورة، ولعل السبب هو أن تمام الفتنة لا تكون إلا باجتماعهما، كما أن تمام النعمة بهما معاً، فالمرء لا يسعد بأبنائه مع فقره، ولا تتم نعمته بالمال من غير بنين.

٤– الميل إلى ذوي الجاه والثراء والسلطان:

جاء هذا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا ﴾(الكهف:٢٨)، وإنما قلنا أن المراد بمن أغفل الله قلبه عن ذكره ذوو الجاه والسلطان والثراء والمكانة في المجتمع، لدلالة النهي في قوله:﴿وَلَا تُطِعْ ﴾ والمرء لا يطيع ويميل

(١) انظر تفسيره(٢٤٦/١٥) ولا يعني خفاؤها على البعض عدم تواترها، فقد أجمعت الأمة على تواتر القراءات السبع، بل العشر. انظر: النشر(٣٨/١).

(٢) له كتاب في القراءات ذكر فيه السبعة، وخمسة عشر قارئاً سواهم. انظر: غاية النهاية في طبقات القراء(١٠٦/٢) والنشر(٣٧/١).

(٣) انظر: تفسير أبي السعود(٢٤٦/١٥).

(٤) انظر: المصدر السابق(٢٢١/٥).

بطبعه إلا لمن علا قدره، وارتفع شأنه، ممن يملك متعاً دنيوية، ويؤكد هذا أن النهي جاء بعد قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ (الكهف: ٢٨)، فههنا فريقان متضادان، أحدهما: ذاكر لربه لكن لا زينة عنده، والآخر: غافل عن ذكر ربه، متبع هواه، لكن الطبع يميل إلى طاعته، والتقرب إلى مرضاته، مما يدل على أنه يملك زينة ومتعاً دنيوية، كما هو مشاهد، ويؤكد هذا أمران:

أ- قوله تعالى:﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾ إذ ليس في قلبه متسع لذكر الله، وهذا شأن من انشغل بدنياه، وتمحور حول ذاته ولذاته، وماله وولده، فصار من أبعد الخلق عن ذكر الله وطاعته، وقد أكد ابن جرير أن المراد بهم الأشراف، ممن يبتغى بمجالستهم الشرف والفخر(١).

ب- قوله تعالى في الآية التالية: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ (الكهف:٢٩) فهذا الإعلان الصريح، المبطن بالتهديد(٢)، يحمل إعلاناً آخر وهو غنى هذا الدين عمن لا يريدون كل الحق، أو يريدون لهذا الدين تغييراً، ليخدم أهواءهم، وهذا شأن ذوي المكانة في المجتمع، ممن رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها(٣).

(١) انظر: تفسير ابن جرير(١٥/٢٣٥).

(٢) صح عن ابن عباس أنه قال في معنى الآية:(إنما هو تهديد ووعيد)انظر: تفسير ابن جرير(١٥/٢٣٨).

(٣) يشهد لهذا سبب نزول قوله تعالى: "ولا تطرد الذين يدعون ربهم "{الأنعام٥٢}رواه مسلم كتاب فضائل الصحابة، ح(٢٤١٣)(٤/١٨٧٨).

٥– التعزز بالأنصار:

وقد ذكر الله ذلك في قوله خبراً عن صاحب الجنتين في حواره لصاحبه المؤمن: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾(الكهف: ٣٤).

والنَّفَر: قوم الرجل وعشيرته التي تنفر لنصرته إذا حزبه أمر، قال ابن منظور:(نَفَرُ القوم: جماعتهم الذين ينفرون في الأمر)[١].

ومنه الحديث: «وإذا استنفرتم فانفروا»[٢] .

أي: إذا طلب منكم الإمام النصرة فأجيبوا، وانفروا للإعانة[٣].

وبهذا المعنى فسر المفسرون الكلمة، قال الزجاج:(يخبر أن نصّاره كثر)[٤].

وقال الراغب:(نفر إلى الحرب ينفُر وينفِر نفْراً...والنفَر والنفير والنَفرة: عدة رجال يمكنهم النفْر)[٥] يعني للحرب أو النصرة.

٦– الحرث والجنان:

ذكر الله هذه الفتنة في قصة صاحب الجنتين، ووصفهما بصفات جمال وكمال كأعظم ما تكون الجنان، ويتمناه الإنسان، ومن ذلك:

١) الوصف باسم الجنة، والحرث لا يسمى كذلك إلا إذا تكاثرت أشجاره، فسترت الأرض، قال الراغب:(الجنة: كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض)[٦].

---

(١) لسان العرب(نفر)(٥/٢٢٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب الحج، باب تحريم مكة، ح(١٣٥٣)(٢/٩٨٦).

(٣) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي(٩/١٢٣).

(٤) معاني القرآن وإعرابه(٣/٢٨٥).

(٥) المفردات(نفر) ص: ٥٠١.

(٦) المفردات(جن) ص: ٩٨.

٢) التثنية، مما يدل على كمال القدرة، والتمكن من إتمام الأولى. والأمان من كثير من الجوائح، فلو أصيبت إحداهما بقيت الأخرى.

٣) التخصيص والتعميم في مزروعاتها، فخص العنب والنخل بالذكر ؛ لأنهما من أطايب القوت والفاكهة[١]، ومما يكنز فترة طويلة، وعمم بذكر الزرع ؛ لأنه كما يقول ابن فارس:(اسم لما نبت)[٢] والثلاثة تدل على دوام منافعها في فصول السنة.

٤) حسن التنظيم، فقد جعل النخل محتفًا بالزرع، والزرع محتفاً بالعنب، وفي هذا كمال وجمال ؛ فالعنب يحتاج إلى عناية وحماية لا يحتاجها النخيل، فجعل في الداخل للحماية من الرياح، ومن رعي البهائم، ومن غزو الحشرات، وحينئذ يطيب، قال الزمخشري:(وهذا مما يؤثره الدهاقين[٣] في كرومهم أن يجعلوها مؤزرة بالأشجار المثمرة)[٤].

٥) قوله تعالى:﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ وهو يدل على أمور:

كثرة الماء وعدم انقطاعه سائر أيام السنة.

أن النهر جار خلال الجنتين، فلا كلفة فيه من أي وجه.

ج– أنه ماء نهر، لا آبار فهو غني بالغرين[٥]، وهذا يعني تجدد التربة، وجودة

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود(٥/٢٢٠).

(٢) معجم مقاييس اللغة(زرع)(٣/٥١).

(٣) الدهاقين: جمع دهقان، وهو زعيم فلاحي العجم، ورئيس الإقليم، وصاحب الزراعة، معرّب. انظر: النهاية في غريب الحديث(دهقن)(٢/١٤٥)والقاموس المحيط، باب النون، فصل الدال(٤/٢٢٤).

(٤) الكشاف(٢/٤٨٣).

(٥) الغرين: الطين يحمله السيل فيبقى على وجه الأرض. انظر: القاموس المحيط، باب النون، فصل الغين(٤/٢٥٣).

النبات.

٦) قوله تعالى: ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ﴾.

والمراد بالأكل: الثمر.

والظلم هنا: النقص[1]، والمعنى: إن الجنتين أثمرتا كأتم ما تكون وأكمله، فجمعت الثمرة كمال النماء، وتمام النضج، وبهاء المنظر.

كما أن الله تعالى وصف هذا الرجل بصفات تدل على كمال فتنته، ومن ذلك:

١- قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ ﴾ أي صنوف أموال سوى الجنتين، كما تقدم، قال الزمخشري: (كان وافر اليسار من كل وجه، متمكناً من عمارة الأرض كما يشاء)[2].

٢- أنه قصد إغاظة صاحبه بالقول والفعل، فهو قال: ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ ثم أدخله جنتيه لتتم الإغاظة بالفعل ؛ إذ إن جملة: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ وقعت بعد قوله: ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا ﴾.

وقبل قول صاحبه: ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾ مما يؤكد أن نهاية المحاورة كانت داخل الجنة.

٣- أن هذا الرجل المفتون، جمع لنفسه الأمان من العذاب الدنيوي، بدلالة قوله: ﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ والأمان من عذاب الآخرة، بدلالة قوله: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾.

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود(٥/٢٢١).

(٢) الكشاف(٢/٤٨٤).

وفي مثل هذه الحالة يتحقق الطغيان، وينفتح باب الفجور[١]، وتتحطم الحواجز والزواجر، فيبلغ المرء قمة الفتنة، بتضييع حق الله، والتفريط في حق خلقه، كما قال تعالى:﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۖ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ القيامة: ٥، ٦}.

٤–أنه جمع أنواعاً من الكفر يستحق على كل نوع عذاباً، فهو كافر بالله، بدلالة قول صاحبه:﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾{الكهف: ٣٧} ومشرك به بدلالة قوله:﴿ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾{الكهف: ٤٢} وشاك بالبعث كما قال هو:﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾{ الكهف: ٣٦}.

ثانياً: علاج الفتنة بالحياة الدنيا وزينتها:

عالجت السورة هذه الفتنة على طريقة القرآن في التربية، وهو الابتداء بعلاج أصل الداء، وتجفيف المنبع، أو تخفيفه حين لا يراد القضاء عليه باعتباره من أصل الفطرة، ثم تعزيز ذلك بعلاجات أخرى توقظ حس المؤمن، وتلفت انتباهه ؛ ليظل على يقظة تامة، وشعور عميق بخطر هذه الفتنة، حتى لا يصل –إن تسفّل وتنزّل– إلى حالة من قال الله فيه:﴿ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾{الكهف: ٢٨}.

إن كثرة علاجات السورة لهذه الفتنة دليل على عمقها، وكثرة شعبها، وتعدد مداخلها للنفس، وإليك أبرز ما ذكرته السورة من علاجات:

(١) انظر أيسر التفاسير(٥/٤٧٥).

١– الإرشاد إلى وظيفة الإنسان الأساسية:

من أعظم مقاصد السورة تنبيه الإنسان إلى حكمة خلقه، وسر تميزه عن سائر المخلوقات، والهدف من وجوده في هذه الحياة.

إنه لم يخلق ليكون زيادة في عدد العجماوات، بل له رسالة سامية، تتمثل في عبادة الله وحده – على الرغم من وجود العوائق – وطاعة رسله، والاعتصام بكتبه، ففي مطلع السورة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾{الكهف: ١، ٢} وفي ختامها: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ {الكهف: ١١٠} ومن حاد عن هذا النهج – وقد أعطي الاختيار– فقد هُدّد بقول الحق:﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾{الكهف:٢٩}ومن وفّى بالعهد، وأدى الأمانة، فهو موعود من الله بقوله:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾{الكهف: ١٠٧}. ولقد جاءت الرسل لترشد البشرية إلى أمر جلل:﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾{الكهف: ٥٦}.

إن السورة تغرس في ذهن المؤمن أن الله أراد منه أمراً أكبر من مطالب الجسد، وشهوات البدن، ومصالح الدنيا القريبة، وحينئذ تتضاءل في حسه متع الدنيا، وتتصاغر زخارفها في وجدانه، فعبء المسؤولية، وثقل الأمانة، ومشقة الطريق، وخطورة النتيجة، صوارف عن كل ملهاة، وموانع من كل غفلة:﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾{الكهف: ٥٤}.

٢– التنبيه إلى قضية الابتلاء:

يندرج في تنبيه الإنسان إلى وظيفته الكبرى وهي عبادة الله، إرشاده إلى قضية الابتلاء في هذه الحياة، مع إعطائه وسائل الفلاح، وأسباب الخسارة.

إن البعض قد يتساءل قائلا: خلق الله الإنسان لعبادته، فما حكمة وضع عوائق وموانع وصوارف في طريقه، من شهوات مزينة، ودنيا مزخرفة، وشياطين مردة، وجسد خلق ضعيفاً، مع قابليته للإغواء والإغراء، وما يكتنف ذلك من أمن وخوف، وصحة ومرض، وغنى وفقر، ونوم وكلل، وهوى وطمع، وهلع وجزع؟!. وقد جمع النبي ﷺ ذلك بقوله:" حجبت النار بالشهوات وحجبت الجنة بالمكاره "(١).

والجواب في السورة نفسها، في قوله تعالى:﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ {الكهف: ٧}.

إن قضية الابتلاء لبني آدم، و قضية(﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ تستلزم أمرين:

أ– حرية الإنسان(٢)، إذ لا يتم ابتلاؤه إلا بذلك، وقد ذكر الله ذلك في السورة نفسها، في قوله:﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[الكهف: ٢٩].

ب– وجود العوائق والموانع، التي تتطلب مقاومة ومجاهدة(٣)، وصبراً ومصابرة، وحينئذٍ يتفاوت بنو آدم ربحاً وخسارة، حسب عمل كل امرئ منهم، وجهده وجهاده، وهذا معنى قول الحق سبجانه:﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[الكهف: ٧] قال ابن جرير–رحمه الله–:(لنختبر عبادنا أيهم أترك لها، وأتبع لأمرنا ونهينا، وأعمل فيها بطاعتنا)(٤).

---

(١) رواه البخاري كتاب الرقاق، باب حجبت النار...ح(٧٤)(١٨٣/٨) ونحوه مسلم، كتاب الجنة، ح(٢٨٢٢)(٢١٧٤/٤).

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية(٣٩٣/٨).

(٣) انظر: الموافقات في أصول الشريعة(١١٦/٢-٢٢١).

(٤) تفسير ابن جرير(١٩٥/١٥).

وعلى ضوء قضية الابتلاء نعلم أن الله تعالى أراد من البشر نوعاً خاصاً من العبادة تختلف عن عبادة الملائكة الذين ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ { التحريم: ٦} والذين ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾ {الأعراف: ٢٠٦} ففي الحديث:" والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم"[(١)] كما تختلف عن عبادة العجماوات بالفطرة، وعن عبادة الجمادات بالتسخير.

فعبادة الإنسان بإرادته أولاً: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾[التكوير: ٢٨] وبمجاهدته.

ثانياً:﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[العنكبوت: ٦٩] وبحسن عمله.

ثالثاً: ﴿ خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ {الملك: ٢}.

ثم إن للابتلاء حكمة لطيفة، وهي تمييز الصادق من الكاذب:﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾{ العنكبوت: ٢} وتمييز المؤمن من المنافق:﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴾{محمد: ٢٩} وكشْف من يعبد الله حين لا تتعارض مع دنياه[(٢)] ومن يعبد الله على كل حال:﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾(الحج:١١) وكذلك فضح ذي الإيمان الواهي، الذي لا يصمد عند أذى الكافرين[(٣)] فهو:﴿يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ

(١) رواه مسلم، كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار، ح(٢٧٤٩)(٤/٢١٠٦).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير(٣/٢١٩).

(٣) انظر: تقسير البغوي(٦/٢٣٥).

كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾(العنكبوت: ١٠).

وإذا أيقن الإنسان بقضية الابتلاء، وعرف حكمة الباري في مجريات القدر، وتكاليف الشرع، وأن ثمت قصداً كما يقول الإمام الشاطبي بأن:(الشريعة موضوعة لإخراج المكلف من داعية هواه حتى يكون عبداً لله)[١]،ولا يتم ذلك إلا بشيء من الكلفة والمشقة والابتلاء[٢].

إذا أيقن بذلك تهاوت عروش المتع الدنيوية، وتهافتت زخارفها وزينتها، وخرج حبها من سويداء القلب لتحل باليد، وانكمش سلطانها كمتصرِّف موجِّه، إلى متصرَّف فيها يديرها الشرع، ويوجهها العقل، حسب المصلحة الدينية والدنيوية.

٣– التعريف بحقيقة الدنيا:

من أعظم وسائل القرآن في درء الفتنة بالحياة الدنيا قبل وقوعها، والعلاج منها بعد الوقوع، التعريف بحقيقة الدنيا، وكشف الغطاء عن بصيرة المؤمن حتى يرى ما فيها من المساوئ والمحاسن، فيمنحها حقها، ويعرف حجمها من غير زيف أو خداع، أو زهد وانقطاع، وقد جاء التعريف بحقيقة الدنيا في السورة في محورين:

أولاً: ضرب المثل لها بنبات الربيع الوسمي[٣]:

---

(١) الاعتصام(٢/٣٣٠).

(٢) الموافقات في أصول الشريعة(٢/١١٦).

(٣) قال الجوهري: الوسمي: مطر الربيع الأول. الصحاح(وسم)(٥/٢٠٥١).

قال الله تعالى:﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾(الكهف: ٤٥).

وهذا المثل عجيب الشأن، منطبق تمام الانطباق على الحياة الدنيا، وقد حوى وجوهاً بلاغية فائقة، أهّلته لبلوغ الغاية في بيان المراد، منها:

١) أن النبات الذي ضرب به المثل قصير العمر، بدلالة أن الحديث عن نبات نما بسبب ماء السماء، لا ماء أنهار، ولا عيون، وهذا النبات اختلط بهذا الماء[(١)]، وهذا يعني سرعة النمو، والمبادرة قبل جفاف الماء، فهو يخالطه ويجاوره[(٢)]، وهذا شأن الحشائش الموسمية، قصيرة العمر، بخلاف السيل الجاري، فهو المنبت للأشجار المعمرة، وهي غير مقصودة هنا، بخلاف آية سورة يونس، فهي مقصودة، بدلالة كثرة الأصناف المذكورة مما يأكل الناس والأنعام، ولأن هلاكها كان بسبب أمر رباني أتاها ليلاً أو نهاراً، أما هنا فالنبات قد أصبح هشيماً بسبب جفاف الماء.

ولم يتفطن الزمخشري[(٣)] ومن تبعه كالبيضاوي وأبي السعود[(٤)] إلى هذه النكتة البلاغية، فزعموا أن في الجملة قلباً وعكساً، وعبارة البيضاوي:(كان التركيب أن يقال: فاختلط بنبات الأرض، لكن لما كان كلٌ من المختلطين

---

(١) على هذا التفسير تكون الباء في(فاختلط به) للتعدية، كما هو مقتضى تفسير ابن جرير(٢٥٢/١٥) ورجحه القرطبي(٤١٢/١٠) وليست سببية، كما يرى الزمخشري في كشافه(٤٨٦/٢) وتبعه غيره، وجوز السمين في الدر المصون(٥٠١/٧) الوجهين.

(٢) انظر: التحرير والتنوير(١٤٢/١١).

(٣) الكشاف(٤٨٦/٢).

(٤) تفسير أبي السعود(٢٢٤/٥).

موصوفاً بصفة صاحبه عكس للمبالغة في كثرته)[١].

والظاهر أن الجملة لا عكس فيها ولا قلب ولا مبالغة، بل هي خبر عن واقع وهو قصر عمر النبات، فهو باق ما دام مختلطاً بالماء، فإذا جف الماء، وزال الاختلاط، صار هشيماً تذروه الرياح.

١– إيراد ثلاث جمل قصيرة، لتتواءم مع قصر حياة النبات، الموائم لقصر الحياة الدنيا.

٢– التعقيب بالفاء الدالة على تتابع الأمر، وتسارع حياة النبات، ثم فنائه، لتتناغم مع حقيقة الحياة الدنيا المتسارعة.

٣– عدم الفصل بين نزول الماء واختلاطه بالنبات، وكونه هشيماً، فبمجرد ما نزل الماء اختلط به النبات، مما يعني سرعة نموه، وبمجرد ما نما هلك.

٤-جمع الرياح[٢] وهذا مقصود، فإن الرياح أضعف من الريح، لأن الرياح يضاد بعضها بعضاً، فتنكسر حدتها[٣] ولذا تأتي في العذاب – عادة– مفردة[١]، كقوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾(الذاريات:٤١).

(١) تفسير البيضاوي(٣/٢٨٣).

(٢) هذه قراءة الجمهور، وقرأ حمزة والكسائي «الريح» بغير ألف، كما في التيسيرفي القراءات السبع(ص:٧٨) والنشر(٢/٢٢٣).

قال ابن زنجلة مبيناً أن المفرد هنا بمعنى الجمع:(وحجتهما أن الواحد يدل على الجنس.. كما تقول: كثر الدرهم والدينار في أيدي الناس، إنما تريد هذا الجنس، قال الكسائي: والعرب تقول: جاءت الريح من كل مكان، فلو كانت ريحاً واحدة جاءت من مكان واحد، فقولهم: من كل مكان، وقد وحدوها يدل بالتوحيد على معنى الجمع). حجة القراءات لابن زنجلة(ص: ١١٨).

(٣) انظر: تفسير القرطبي(٢/١٩٨).

وقوله:﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾(الإسراء: ٦٩).

وفي جمع الرياح إشارة إلى ضعف الهشيم، فالرياح الضعيفة تذروه، لوهائه وتفتته.

وعلى ضوء هذا المثل فإن الدنيا سريعة الزوال والانقضاء، وشيكة الوهاء والفناء، كشأن النباتات الموسمية في الصحراء، التي تنبت عند أدنى ماء، فتنمو وتزهر بعجالة فائقة، فتسر الناظر، وتبهج الخاطر، لكنها سريعة الذبول، وشيكة الفناء، فبمجرد جفاف الماء تيبس وتتهشم، وتذروها الرياح.

هكذا هي حياة ابن آدم، يخرج إلى هذه الدنيا في غاية الضعف، ثم سرعان ما ينمو ويكتمل، ثم يدب إليه الضعف، ثم يرحل عن الدنيا كأن لم يكن بالأمس.

قال السعدي:(كذلك هي الدنيا، بينما صاحبها قد أعجب بشبابه، وفاق فيها على أقرانه وأترابه، وحصل درهمها ودينارها، واقتطف من لذته أزهارها...إذ أصابه الموت، أو التلف لماله، فذهب عنه سروره، وزالت لذته وحبوره، واستوحش قلبه من الآلام، وفارق شبابه وقوته وماله، وانفرد بصالح أو سيء أعماله، هناك يعض الظالم على يديه، حين يعلم حقيقة ما هو عليه... فالعاقل الحازم الموفق، يعرض على نفسه هذه الحالة، ويقول لنفسه: قدري أنك قد مت... فأي الحالتين تختارين ؟! الاغترار بزخرف هذه الدار، والتمتع بها كتمتع الأنعام السارحة، أم العمل لدار أكلها دائم وظلها، وفيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين ؟!)[٢].

(=) المصدر السابق.

(٢) تفسير السعدي(: ٤٧٨) باختصار.

ثانياً: وصف الحياة الدنيا بالزينة:

في لسان العرب:(الزينة: اسم جامع لكل شيء يتزين به)[١].

والوصف بالزينة، كما يقول ابن جرير لكونها(تفنى فلا تبقى لأهلها)[٢].

وقد وصفت الحياة الدنيا بالزينة في هذه السورة في موضعين:

الأول– في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾(الكهف: ٧، ٨).

وحول هاتين الآيتين وقفات:

١– الآية تدل على أن كل ما على الأرض زينة وجمال لها، فيدخل في ذلك الحيوان والنبات وغيرهما، ويفسرها قول الله تعالى:﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ (السجدة: ٧).

وما ورد عن بعض السلف من تخصيص شيء كقول ابن عباس: العلماء زينة الأرض، أو قول سعيد بن جبير: الرجال، أو قول الحسن البصري: العباد[٣]، فهو من باب التمثيل، وكثير من تفسير السلف إنما هو من هذا الباب[٤].

٢– الغرض من سياق الآيتين تسلية النبيﷺ قال القرطبي:(والآية بسط في التسلية، أي: لا تهتم يا محمد للدنيا وأهلها، فإنا إنما جعلنا ذلك امتحاناً واختباراً)[٥].

وقد أحال القرطبي إلى موضع سابق يتمم المراد، وهو قوله نقلاً عن ابن إسحاق:(وإن ما عليها لفان وزائل، وإن المرجع إليّ، فأجزي كلاً بعمله، فلا

(١) لسان العرب(زين)(٢٠٢/١٣).

(٢) تفسير ابن جرير(٢٥٣/١٥).

(٣) انظر أقوال السلف في الدر المنثور(٤٨٥/٩).

(٤) انظر: شرح مقدمة في أصول التفسير(ص: ٦٣).

(٥) تفسير القرطبي(٣٥٤/١٠).

تأس، ولا يحزنك ما ترى وتسمع فيها)[1].

٣- يذهب كثير من المفسرين إلى أن الوعيد المذكور في قوله تعالى:﴿ وَإِنَّا لَجَعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ يوم القيامة، حين تبدل الأرض غير الأرض[2]، والذي يظهر أن مدلول الآية أعم، فالفناء المذكور نوعان: جزئي متجدد، وهذا يتحقق في كل وقت وآن، وكلي، وهذا يكون يوم القيامة. ويدل على العموم أمور:

أ- عموم قول الله تعالى:﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ﴾ وليست كل زينة يتأخر فناؤها إلى يوم القيامة، قال النسفي: (المعنى: نعيدها بعد عمارتها خرابا بإماتة الحيوان وتجفيف النبات والأشجار)[3].

ب- المقصود من الآية تسلية النبي ﷺ وتصغير ما بأيدي أعدائه من متع ولذات، ولو كان المعنى: إن زينتهم ستتأخر إلى يوم القيامة، لما تحقق الغرض المقصود.

ت- أن هذين الوصفين «الصعيد» و«الجرز» ليسا خاصين بأرض القيامة، فقد قال الله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾(المائدة: ٦)

وقال تعالى:﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ ﴾(السجدة:٣٦) والصعيد: وجه الأرض[4]، والجرز: الأرض التي لا نبات فيها[5].

---

(١) المصدر السابق(١٠/٣٤٨).

(٢) انظر مثلاً: تفسير القرطبي(١٠/٣٥٦) والتحرير والتنوير(١٥/٢٥٨).

(٣) مدارك التنزيل. بهامش تفسير الخازن(٣/٨٦)

(٤) المفردات في غريب القرآن:(صعد)(ص: ٢٨٠).

(٥) انظر: تفسير ابن جرير(١٥/١٩٦).

وعلى ضوء ذلك فالمعنى: كل زينة على وجه الأرض ستسوى بالأرض، أو تكون تراباً يباباً[١]، لا بهجة فيه، فالآيتان بمعنى قول الحق:﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (الرحمن: ٢٦) والفناء متكرر تكرر الحياة والإيجاد، ثم يكون الفناء العام لمن بقي يوم القيامة.

٤– إذا عرف ما سبق، فالآيتان أصل في الزهد المشروع، فهما يقرران في قلب من يعقل عن الله، بأن كل ما على الأرض مجرد زينة لا بقاء لها، فليست أهلاً أن تباع بها الآخرة، أو يتقطع القلب حسرات على فواتها.

والزهد المشروع كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:(ترك الرغبة فيما لا ينفع في الدار الآخرة، وهو فضول المباح التي لا يستعان بها على طاعة الله)[٢].

وقد ذكر القرطبي قول سفيان الثوري:(الزهد: قصر الأمل، وليس بأكل الخشن، ولبس العباء) ثم علق القرطبي قائلاً:(قال علماؤنا: صدق– رضي الله عنه – فإن من قصر أمله لم يتأنق في المطعومات، ولا يتفنن في الملبوسات، وأخذ من الدنيا ما تيسر، واجتزأ منها بما يبلِّغ)[٣].

الثاني– في قول الله تعالى:﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (الكهف: ٤٦).

وإنما كان المال والبنون كذلك؛ لأن في المال جمالاً وكمالاً، ونفعاً

(١) في لسان العرب(يبب)(١/٨٠٥):(أرض يباب: أي خراب...اليباب عند العرب: الذي ليس فيه أحد).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام(١٠/٢١).

(٣) تفسير القرطبي(١٠/٣٥٥).

ودفعاً، ولأن في البنين أنساً حال صغرهم، وقوة ونفعاً حال كبرهم، كما أن البعض يجعل المال والبنين موضع تفاخر، وموطن تكاثر.

وقد يتوهم البعض أن الآية تثني على المال والبنين، أو هي تخبر عن واقع مشاهد، ولكن السياق يقتضي أن الآية سيقت مساق الذم لهذه الزينة، بدلالة قرينتين:

أولاهما– أن الزينة أضيفت إلى الحياة الدنيا، قال ابن عطية بعد أن ذكر أن لفظ الآية خبر:(لكن معه قرينة الضعة للمال والبنين، لآنه في المثل السابق حقر أمر الدنيا، فكأنه يقول في هذه: إنما المال والبنون زينة هذه الحياة المحقرة فلا تتبعوها نفوسكم)[1].

الثانية– التعقيب بقوله–سبحانه–:﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾.

فالوصف بالبقاء تعريض بفناء المال والبنين، وانقطاع نفعهما[2].

والوصف بالصلاح إشعار بعدم صلاح التفاخر والتكاثر بهذه الزينة.

والوصف بالخيرية عند الله تنبيه إلى أن خيرية هذه الزينة في الحياة الدنيا.

وفي الفتوحات الإلهية:(القصد من هذا – يعني الوصف بالزينة – الرد عليهم في الافتخار بالمال والبنين...وهذا إشارة إلى قياس حذفت كبراه ونتيجته[3]، ونظمه هكذا: المال والبنون زينة الحياة الدنيا، وكل ما هو زينتها

---

(١) المحرر الوجيز(٣/٥٢٠) بتصرف.

(٢) تفسير القرطبي(١٠/٤١٤).

(٣) من أنواع القياس عند المناطقة ما يشتمل على ثلاثة حدود ومقدمتين على الأقل، ثم نتيجة، وإحدى المقدمتين يطلق عليها الكبرى، والأخرى الصغرى. انظر: تلخيص كتاب القياس =

فهو هالك غير باق، فينتج: المال والبنون هالكان، ثم يقال: وكل هالك فلا يفتخر به، فالمال والبنون لا يفتخر بهما)[1].

وإذا علم – بداهة – أن المال والبنين هما لطلاب الدنيا أعظم مطلوب، وأقوى مرغوب، وهذا شأنهما، فما عداهما أقل شأناً، وأضعف سلطاناً، فلا يليق بعاقل أن يفرط بنصيبه من الله ومن الدار الآخرة، بعرض من الدنيا، مهما تطاول أو تخايل، أو تعاظم أو تفاقم، أو خادع أو تمانع، فاللذة حقيرة، والعاقبة خطيرة.

٥– التعريف بحقيقة الآخرة:

من وسائل السورة في القضاء على الفتنة بالحياة الدنيا تعريف الخلق بمآلهم بعد هذه الحياة، وبيان ما في الحياة الآخرة من نعيم مقيم، وعذاب أليم، وأنه لا مقارنة بين الحياتين، وقد تعددت محاور السورة لكشف هذه الحقيقة، ومن أبرزها:

أولاً– وصف حال الناس يوم القيامة:

من محاور السورة في التعريف بحقيقة الآخرة بيان حال الخلائق حين قدومهم على الله يوم الجزاء والحساب، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾(الكهف: ٤٨) وهذا يعني أن المرء يعرض على الله وهو:

ضعيف لا قوة له، قد تجرد من كل سلطان كان يصول ويجول به في الدنيا.!

فقير لا شيء معه من متع الدنيا وزينتها.!

= لابن رشد(ص: ٧٧)

(١) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين(٢٧/٣).

وحيد مقطوع من كل حسب أو نسب أو شفيع لم يأذن به الله.!

وفي الحديث: «إنكم ملاقوا الله حفاة عراة مشاة غرلاً»[1].

لقد تركوا كل شيء مما كانوا يعظمونه في الدنيا سوى العمل الصالح، كما قال تعالى في آية أخرى:﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾(الأنعام: ٩٤).

وكل هذا يزهد بمتع هذه الحياة، ويحمل على العزم على النجاة بعد الممات.

ثانياً– وصف الحشر:

تصف السورة حشر الخلق كأنه رأي العين، قال تعالى: **﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾(الكهف: ٤٧) فالجبال قد سيرت، والأرض قد سويت، والخلائق جميعاً قد حشرت، وعلى صعيد المحشر تبرز هيئات، ومعالم ومواقف، يحسن سوقها بترتيب ؛ لنلفت الانتباه إليها:**

١– العرض الأكبر على الله يكون على هيئة صفوف، بنظام وإتقان:﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾(الكهف: ٤٨). أما قبل العرض فقد كانوا في غاية الاضطراب، يموج بعضهم في بعض[2]، كما قال تعالى:﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾(القارعة: ٤).

٢– يحشر الخلائق ضعفاء، أذلاء:﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (الكهف: ٤٨).

٣– يتبين للإنسان في ذلك الموقف أنه كان في الدنيا مراقباً، قد وكل به

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، ح(١١١)(٨/١٩٦) ومسلم بنحوه، كتاب الجنة، باب فناء الدنيا، ح(٢٨٥٩)(٤/٢١٩٤).

(٢) معالم التنزيل(٨/٥١٣).

حفظة يحصون عليه القليل والجليل، والصغير والكبير: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾(الكهف: ٤٩) وحينئذ تنكشف المخبآت والسرائر، وتبرز أمام عينيه الكبائر والصغائر، ويدعو المجرم على نفسه بالويل والثبور، ويعرف ما كان عليه في دنياه من غرور.

٤– من أفظع المواقف في ذلك اليوم دنو النار من أهل المحشر، ورؤيتهم لها، كما أخبر الله بقوله: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ ﴾(الكهف: ٥٣) وهذه الرؤية قصد بها التهويل والترهيب، بدلالة قوله تعالى في آخر السورة: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ۝ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴾ (الكهف: ٩٩، ١٠٠).

٥– من مواطن الحسرة في ذلك اليوم تبرؤ الشركاء ممن عبدوهم: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾(الكهف: ٥٢).

إن هذا الوصف لحال ابن آدم في هذا الموقف الرهيب يوقظه من سبات، وينبهه من غفلة، ويجعله يتساءل عن حكمة الحياة، وكيف النجاة قبل الفوات.

ثالثاً – وصف النار وعذابها:

من تعريف الخلق بالآخرة، وبيان مآلهم بعد هذه الحياة الدنيا، وصف النار، وما أُعد لأهلها، مما تقشعر من ذكره الجلود، وتضطرب منه القلوب.

وقد ذكرت جهنم في هذه السورة عدة مرات، ويكفي في بيان حالها، وسوء مآلها، وفظيع عذابها، قول الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾

(الكهف: ٢٩).

أعتدنا: أعددنا وهيأنا[١]، مأخوذ من العتاد، وهو الشيء المعد الحاضر[٢].

والسرادق: كل ما أحاط بشيء...نحو الحائط المشتمل على الشيء[٣].

وقال ابن جرير: (قيل: حائط من نار يطيف بهم، كسرادق الفسطاط، وهي الحجرة التي تطيف بالفسطاط)[٤].

والاستغاثة: من الغوث، وهو طلب النصرة، أو من الغيث وهو طلب المطر[٥].

واللفظ صالح لشمول الأمرين، فهم استغاثوا من حر النار، واستغاثوا من شدة العطش، بدلالة ذكر وصفين للماء الذي أغيثوا به في قوله تعالى:﴿يَشْوِي ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ أي: أن ما أغيثوا به يزيدهم حراً، ويزيدهم عطشاً.

والمهل: ما ذاب من صفر أو حديد،[٦]، وقد روي عن النبي– ﷺ– في قوله: «بماء كالمهل» قال:« كعكر الزيت[٧]، فإذا قُرِّب إليه سقطت فروة وجهه

---

(١) المصدر السابق(٥/١٦٧).

(٢) المحرر الوجيز(٣/٥١٣).

(٣) انظر: معاني القرآن للزجاج(٣/٢٨٢).

(٤) تفسير ابن جرير(١٥/١٣٨).

(٥) انظر: المفردات(غوث)(ص: ٣٦٧).

(٦) انظر: جمهرة اللغة، باب اللام والميم(ل م هـ)(٢/٩٨٨).

(٧) عكر الزيت: آخره وخاثره وما تكدر في أسفله. انظر: لسان العرب(عكر)(٤/٦٠٠).

فيه»[١]، وعن ابن عباس– رضي الله عنهما– عن النبي ﷺ أنه قال:« لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا، لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه»[٢].

والآية تنبئ عن عذاب شديد رهيب، فالنار قد هيئت لأهلها، فإذا دخلوها أحاط بهم سرادقها، فلا ملاذ حينئذ ولا مهرب، فإذا اشتد كربهم، وعظم عطشهم، وترادفت حسراتهم، استغاثوا فأغيثوا من غير تأخير، ولكن بما يزيد العذاب، ويضاعف العطش، إنه ماء كالمهل، أشد ما يكون حراً، قد سعرت عليه جهنم منذ خلقت[٣]، إذا أدناه أحدهم من فمه شوى وجهه، فإن شرب تقطعت أمعاؤه: ﴿وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ (محمد:١٥).

هذا ما ينتظر ابن آدم إن حاد عن صراط الله المستقيم، فمن يُخدع بمتع، ومن يهنأ بحياة، وهو على غير ثقة من نجاة.

رابعاً: وصف الجنة ونعيمها:

وهذا من تمام تعريف السورة بحقيقة الآخرة، وقد تعدد ذكر الجنة فيها، ترغيباً

---

(١) رواه أحمد في المسند، ح(١١٦٧٢)(١٨/٢١٠) والحاكم في المستدرك، كتاب الأهوال(٤/٦٠٤) وصححه، ووافقه الذهبي، ولكن في الحديث ضعف، لأنه من رواية دراج بن سمعان عن أبي الهيثم، قال الحافظ ابن حجر:(صدوق في حديثه، عن أبي الهيثم ضعيف) وقال ابن شاهين:(ما كان بهذا الإسناد فليس به بأس) وقال أبو حاتم:(في حديثه ضعف) انظر: تقريب التهذيب(١/٢٣٥) وتهذيب التهذيب(٣/١٨٦).

(٢) رواه أحمد، ح(٣١٣٦)(٥/٢٣٦) والترمذي، كتاب صفة جهنم، باب ما جاء في شراب أهل النار، ح(٢٥٨٥)(٤/٧٠٦) وصححه، كما صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، ح(٥٢٥٠)(٢/٩٣١).

(٣) الوسيط في تفسير القرآن(٤/١٢٣).

في طلبها، وترهيباً عما يصد عنها، من العوائق والقواطع، والفتن والموانع، وسأكتفي بإيراد مثال واحد، وهو قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (الكهف: ٣٠، ٣١). وحول هاتين الآيتين وقفتان:

الوقفة الأولى– معنى الإيمان:

الإيمان في كلام الله ورسوله حقيقة شرعية مركبة من كل ما يحبه الله ورسوله من اعتقادات وأقوال وأعمال[١]، وهو بهذا يرادف الإسلام والدين والبر[٢].

قال الإمام الآجري:(لا تجزئ المعرفة بالقلب والتصديق إلا إن يكون معه الإيمان باللسان نطقاً، ولا تجزئ معرفة بالقلب ونطق باللسان حتى يكون عمل بالجوارح، فإذا كملت فيه هذه الثلاث خصال كان مؤمناً)[٣].

ويخطئ من يظن أن الإيمان شرعاً باق على معناه اللغوي، فكم من مصدق بالحق وهو غير مؤمن، إما لاستكباره كإبليس:﴿ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ (البقرة: ٣٤) أو لجحوده وعناده كفرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ (النمل:١٤) أو لكسله كتارك الصلاة، فقد قال رسول الله ﷺ:« العهد الذي بيننا

---

(١) انظر: عقيدة السلف لأبي عثمان الصابوني، ص: ٢٦٤. ومجموع فتاوى شيخ الإسلام(١٤/٧) وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز(٤٧٤/٢) وكتاب الفوائد لابن القيم، ص: ١٩٦.

(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ص: ٣٣٠.

(٣) الشريعة للآجري، ص: ١١٩.

وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر»[١].

فإن قيل: إذا كان العمل الصالح جزءاً من الإيمان فلماذا عطف عليه؟

فالجواب: إن هذا من عطف الخاص على العام، كالعطف في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ (الأحزاب: ٧) ومحمدا ﷺ وسائر أولي العزم– من النبيين، ولهذا العطف فوائد منها:

١– أن العمل الصالح إذا كان جزءاً من الإيمان ثم عطف عليه، يكون قد ذكر مرتين[٢]، تنويهاً بشأنه، وتحذيراً من إغفاله، لأنه الطارئ على المعهود في اللغة.

٢– أن العمل هو الذي يثقل، لأن الإيمان إذا وقر في القلوب فلا مشقة في تصديق القلب، إنما المشقة في الأعمال، وهي المهيأة للانقطاع، للعجز والكسل، أو الجبن والبخل، أو السآمة والملل، أو لغير ذلك من معوقات العمل.

٣– أن في عطف العمل على الإيمان وهو بعضه دفع توهم الاكتفاء بما في القلب؛ لأنه المعروف في اللغة[٣]، فذكر العمل لإزالة هذا الوهم، إذ ليس كل أهل اللغة يعرفون التسمية الشرعية الجديدة للإيمان، فاحتاجوا إلى التنويه بشأن العمل، إما بعطفه على الإيمان كما في هذه الآية، أو عطف الإيمان عليه، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ (الأنبياء:٩٤) أو عطفه على بعض مفردات العمل، كما في قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ

(١) رواه أحمد في المسند،(ح(٢٢٩٣٧)(٣٠/٣٨) قال محققوه: إسناده قوي، وصححه الألباني، صحيح الجامع الصغير، ح(٤١٤٣)(٧٦٠/٢).

(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز(٤٨٤/٢).

(٣) دليل اللغة هو أكبر أدلة المرجئة، انظر: تمهيد الأوائل للباقلاني، ص: ٣٨٩.

﴿أَقَمْتُمُ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى﴾(المائدة: ١٢) أو جعل العمل وصفاً للإيمان، كما في قوله:﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّٰلِحَٰتِ﴾(طه: ٧٥) أو تسمية العمل إيمانا، كما في قوله:﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾(البقرة:١٤٣)، قال ابن كثير:(أي صلاتكم)[١] ونحو ذلك من أساليب تغرس المفهوم الجديد للإيمان، الذي لا يعهده أرباب اللغة.

٤– قال ابن أبي العز الحنفي:(ولا شك أنه يلزم من عدم طاعة الجوارح عدم طاعة القلب، إذ لو أطاع القلب وانقاد، لأطاعت الجوارح وانقادت، ويلزم من عدم طاعة القلب وانقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة، قال ﷺ:« إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد...»[٢])[٣] فلا غرو إذ تعددت أساليب الاهتمام بالعمل.

وإن المرء ليتعجب من اعتراض البعض على الاسم الشرعي للإيمان، مع قوله تعالى:﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾(الأنفال: ٢–٤)، فأداة الحصر، وإدخال الأعمال في مسمى الإيمان، والنص على زيادته– يقتضي أن للشرع تسمية جديدة ليست معهودة عند أهل اللغة.

وقد حرصت على هذا البيان لأن شبهة المرجئة بفصل العمل عن الإيمان قد جاست خلال العقول، وجالت في الأفئدة، وراجت عند الخاصة والعامة، مما عزل فئاما من الأمة عن التطبيق العملي للإسلام، وصار كثير منهم يكتفي بالاسم، ويدعي أن الإيمان في القلب فقط، مما جعلهم لا يصمدون أمام فتن

---

(١) تفسير ابن كثير(١/١٩٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ح(٥١)(١/٣٤).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز(٢/٤٧٨).

الحياة، ولا يثبتون لكيد العداة، وحاق بهم قوله تعالى:﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا ﴾ (مريم: ٥٩).

الوقفة الثانية– أنواع نعيم أهل الجنة:

بلغ وصف نعيم أهلها في السورة الغاية التي يتصورها الإنسان من عدة نواحي:

أولاً– وصف المكان، وذلك في قوله:﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ ومعنى جنات عدن: بساتين إقامة وبقاء[١] فجمع الجنات مقصود، وجمع الأنهار مقصود أيضاً، لتأكيد الري، وبهجة المناظر.

ونحن نعلم أن أفضل منازل الدنيا ما كان على هذه الكيفية، من إحاطة الأشجار، وجري الأنهار، والأمن من الإخراج.

ثانياً– وصف اللباس، وهو نوعان، لباس تحلية، وهو المذكور في قوله: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ ﴾ وهذا يدل على عظيم شأنهم، وجليل سلطانهم؛ لأن هذه الحلية إنما هي في الدنيا من شأن فئة مخصوصة من الملوك العظام.

واللباس الثاني، لباس ستر، وهو المذكور في قوله: ﴿وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ ﴾ وهذا اللباس أيضاً لا يعرف في الدنيا إلا لمن عظم ترفهم، وترادفت نعمهم.

والسندس والإستبرق: رقيق الحرير وغليظه[٢] والتنويع مراد، إذ لكل نوع مزاياه وخصائصه، وزمن استعماله.

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير(١٥/٢٤٣) ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج(٣/٢٨٣).

(٢) انظر: لسان العرب(سندس)(٦/١٠٧).

ثالثاً– وصف جلوسهم، وهو المذكور في قوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ والأريكة: سرير في حجلة[1]، والحجلة: مثل القبة، وهي بيت يعد للعروس، يزين بالثياب والستور[2]، فاختيار الأرائك تشبيه لهم بالعرسان في لذتهم وسرورهم.

ولنتذكر أن هذا النعيم المقيم، وهذه الأبهة التي بلغت الغاية، والتشبيه بالملوك العظماء، وبالعرسان السعداء، إنما هو تقريب للحقيقة، حسب ما يطيق العقل البشري، أما الحقيقة: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ (السجدة: ١٧). وبذكر وصف المحشر، وحال الناس يوم العرض، وعذاب أهل النار، وصنوف نعيم أهل الجنة تتجلى الآخرة كأنها رأي العين، وحينئذ تتضاءل الدنيا وتصغر، ويسلم المؤمن من الافتتان بها، أو إيثارها على الآخرة، إن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

(١) المصدر السابق(أرك)(١٠/٣٨٩).

(٢) المصدر السابق(حجل)(١١/١٤٤).

المبحث الثالث: الفتنة عند وقوع القدر المكروه

يفتن كثير من الخلق عند وقوع قدر مؤلم، أو مصيبة فادحة، إما بوقوع مكروه، أو فوات محبوب، فيقعون في مآسي تجر إلى مآثم، وفي سيئات يعقبها حسرات، بفوات أجر، أو نيل وزر.

وقد عالجت سورة الكهف هذه الفتنة[1] في قصة موسى والخضر– عليهما السلام– ولعل الفقرات التالية تميط اللثام عن هذه الفتنة، وتكشف الستر عن خفي العلاج.

أولاً– تحرير المراد من هذه الفتنة:

لابد من بيان المراد بهذه الفتنة إذ إن أول الدواء، التعرف على الداء، فقد جبلت النفوس على التألم عند وقوع ما تكرهه من أقدار الله، ولا عتب على

(١) يرى د. بشير الدليمي في الفتن الأربع في سورة الكهف(ص١١) أن مغزى القصة هو علاج الفتنة بالعلم، وتبعه كثيرون من خطباء وكتاب، في المواقع الالكترونية، وهذا غير ظاهر لما يأتي:

١) أن عمدتهم في هذا الادعاء حديث البخاري(كتاب التفسير، سورة الكهف، باب فلما بلغا..) وفيه:" أن موسى ذَكَّرَ النَّاسَ يَوْمًا حَتَّى إِذَا فَاضَتِ الْعُيُونُ، وَرَقَّتِ الْقُلُوبُ وَلَّى، فَأَدْرَكَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ أَيْ رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ فِي الْأَرْضِ أَحَدٌ أَعْلَمُ مِنْكَ ؟ قَالَ: لَا، فَعَتَبَ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَى اللَّهِ " ومثل هذا القول من موسى، والعتب من الله، لا يرقى إلى وصف موسى بالفتنة بالعلم، فهو قال ذلك باجتهاد حسب غلبة ظنه، والدلائل تدل عليه، من تكليم الله له، وإعطائه التوراة تبيانا لكل شيء، لكنه لم يصب في هذا الظن، ووجهه الله إلى الأدب في مثل هذا.

٢) أن الآيات ليس فيها أي ملمح إلى هذه الفتنة المدعاة، فكيف تكون علاجا لشيء لم يذكر فيها.

٣) العتاب من الله لبعض أنبيائه كثير فقد عوتب نبينا مرات، وعوتب نوح، ولا ينبغي وصف ذلك بالفتنة.

ذلك، ولا عيب فيه، فالقلب يحزن، والعين تدمع، كما ورد في الحديث[1]، ولكن المذموم الملوم من وقع في فتنة عند وقوع مصيبة، وهي تتمثل فيما يأتي:

١–الاعتراض على قدر الله، الذي لا حيلة للعبد في دفعه.

٢– التسخط على الله، أو شكايته إلى خلقه.

٣– نسبة الشر إلى الله، والشعور بأنه –سبحانه– هو الذي أوقع المكروه بمحض مشيئته، دون تسبب من العبد.

٤– سوء الظن بالله.

٥– عدم التفطن إلى اللطائف الربانية، والحِكَم الإلهية في المصائب.

ولكي نعرف فظاعة الفتنة عند المصيبة، وتسلط الشيطان على الإنسان، إذ جرت الأقدار بما لا يشتهي، أسوق كلام ابن القيم –رحمه الله– حيث قال: (فأكثر الخلق بل كلهم إلا من شاء الله يظنون بالله غير الحق ظن السوء، فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق، ناقص الحظ، وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله، ولسان حاله يقول: ظلمني ربي، ومنعني ما أستحقه، ونفسه تشهد عليه بذلك، وهو بلسانه ينكره ولا يتجاسر على التصريح به، ومن فتش نفسه وتغلغل في معرفة دفائنها وطواياها رأى ذلك فيها كامنا كمون النار في الزناد، فاقدح زناد من شئت ينبئك شراره عما في زناده، ولو فتشت من فتشته لرأيت عنده تعتبا على القدر، وملامة له، واقتراحا عليه خلاف ما جرى به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك هل أنت سالم من ذلك.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي إنا بك لمحزونون، ح(٦١)(١٧٩/٢).

فان تنج منها تنج من ذي عظيمة وإلا فإني لا إخالك ناجيا[١]

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع، وليتب إلى الله تعالى، وليستغفره كل وقت من ظنه بربه ظن السوء، وليظن السوء بنفسه، التي هي مأوى كل سوء، ومنبع كل شر، المركبة على الجهل والظلم، فهي أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وأرحم الراحمين)[٢].

ثانياً– ملخص قصة موسى والخضر:

يذكر القرآن أن موسى – عليه السلام– قد أعلن لفتاه تصميمه على بلوغ مجمع البحرين مهما كانت المشقة، أو الزمن الذي يقضيه في هذا السفر.

وقد بين النبي ﷺ باعث هذه الرحلة لموسى بأنه« ذَكَّرَ النَّاسَ يَوْمًا حَتَّى إِذَا فَاضَتِ الْعُيُونُ، وَرَقَّتِ الْقُلُوبُ وَلَّى، فَأَدْرَكَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ أَيْ رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ فِي الْأَرْضِ أَحَدٌ أَعْلَمُ مِنْكَ ؟ قَالَ: لَا، فَعَتَبَ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَى اللَّهِ، قِيلَ: بَلَى، قَالَ: أَيْ رَبِّ فَأَيْنَ ؟ قَالَ: بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ»[٣].

ويلقى موسى– عليه السلام– الخضر، ويستأذنه في الصحبة، ليتعلم منه.

لكن الخضر اعتذر عن هذه الصحبة، مبيناً أن موسى لن يستطيع الصبر على ما يفعله، لأن علمه ليس كعلم البشر، واضح الأسباب، قريب النتائج، بل

(١) البيت منسوب للفرزدق في طيقات فحول الشعراء لابن سلام(٢/٣٦٢)ولم أجده في ديوانه ونسبه ابن قتيبة إلى الأسود بن سريع التميمي، وقال: سرقه الفرزدق. انظر: المعارف ص: ٣١٠.

(٢) زاد المعاد(٣/٢٣٥).

(٣) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: وإذا قال موسى لفتاه.. ح(٢٤٧)(٦/١٦٦).

هو علم خاص من لدن الله، يطلعه فيه على شيء من الغيب، وبه يعرف مآل ما أطلعه عليه، فيتصرف باعتبار المآل لا باعتبار الحال، وهذا التصرف – حسب الظاهر– يصطدم بمنطق العقل البشري، وبأحكام شرائع الأنبياء، المبنية على الظاهر وحسب.

لكن موسى– عليه السلام –لم يقبل العذر، وعزم على الصبر، وطاعة الخضر، مقدماً مشيئة الله، فقال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ (الكهف: ٦٩) فشرط الخضر عليه أن لا يسأله عن شيء من تصرفاته حتى يكون هو الذي يبتدئ بالبيان والتفسير، ويرضى موسى بالشرط، ويوافق الخضر على الصحبة.

وتبدأ الرحلة العلمية المباركة بركوب السفينة، التي تحمل معهما ركاباً، وبينما هم في وسط لجة البحر، يخرق العبد الصالح السفينة، معرضاً أهلها لخطر محدق، فانتفض موسى منكراً، وقد نسي الشرط، فقال: ﴿أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا﴾ (الكهف:٧١) ويكتفي الخضر بتذكيره بالشرط بلطف، قائلاً: ﴿أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ (الكهف:٧٢) .

ويعتذر موسى بالنسيان، طالباً العفو وعدم التذكير بالزلة، فيقبل الرجل عذره، وينطلقان، حتى إذا لقيا غلاماً فقتله الخضر دون مبرر ظاهر، وهنا لم يستطع موسى أن يصبر، فأنكر الفعلة مع تذكره العهد، وواجه الخضر بأن هذا منكر، لا يمكن السكوت عليه قائلاً: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا﴾ (الكهف: ٧٤) ويكتفي الخضر بالتذكير بالشرط، والرد إلى الوعد، بلطفه المعهود، قائلا: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾(الكهف: ٧٥) لكن العبارة تنم عن انفعال داخلي، فقد زاد لفظ " لك"، وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، قال أبو حيان:(وفي قوله:" لك " زجر وإغلاظ ليس في الأول)[1].

(١) البحر المحيطّ(٢٠٩/٧).

وهنا يلتمس موسى من الخضر أن يعطيه فرصة أخيرة، فإن أخفق ولم يصبر، فلا معنى للصحبة، وقد عذره موسى إن طلب الفرقة.

ويمنحه الخضر ما طلب على الشرط الجديد، وينطلقان، حتى إذا دخلا قرية، طلبا الضيافة، فأبوا، فقد كانوا بخلاء لئاماً، لا يطعمون جائعاً، ولا يقْرون ضيفاً، ولكن الخضر يقيم فيها جداراً على وشك السقوط، وبدون أجر.

وهنا يتضايق موسى من تصرف الرجل المخالف للحكمة، فما الذي يدفعه إلى إقامة جدار في قرية أهلها بخلاء، وهما جائعان، فالمنطق يقتضي أن يكون العمل مقابل أجر يأكلان منه.

وواجه الخضر بما يجول في صدره فقال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (الكهف: ٧٧) واعتراض موسى هنا ليس على فعل الخير، بل على عدم جلبه للنفس مع الحاجة.

وكانت الثالثة فاصلة بين الرجلين، فلا عذر لموسى بعدها، ولا مجال للصحبة، وهنا يشرح الخضر مبررات أفعاله المنكرة في الظاهر، وفي المنطق المعتاد لكل البشر.

لقد بين الخضر أن تصرفه عن علم أطلعه الله عليه، فعرف مآلات هذه الأشياء، فتصرف في الحال، بما يُصلح المآل، فالسفينة خرقها ليعيبها، لأنها ستمر على جبار ظالم، يأخذ كل سفينة صالحة غصباً، وبهذا العيب الصغير، نجت من الضرر الكبير.

وأما الغلام الذي تظهر في الحال زكاته، ولا يبدو من مظهره ما يسوء، فإنه في مستقبل الأيام سيكون كافراً طاغياً، فلو بقي حياً لأرهق والديه المؤمنين

طغياناً وكفراً فيفسد دينهما ودنياهما، فكان قتله ضرراً يسيراً، يدرأ شراً كثيراً.

وأما الجدار فقد كان تحته كنز لغلامين يتيمين في المدينة، ولو سقط لظهر الكنز وضاع، وكان أبوهما صالحاً، فنفعهما صلاحه.

ثم يبين الخضر لموسى– عليه السلام– أن هذا التصرف إنما هو بأمر الله ورحمته، فهو الذي أطلعه على هذه المآلات، وأمره بهذا التصرف[1].

ثالثاً – كيف عالجت القصة الفتنة عند أقدار الله المؤلمة:

أكد عدد من المفسرين أن للقصة مغزى لا يتبادر للذهن عند الوهلة الأولى، وهو أن الخضر– عليه السلام– يمثل حكمة الله في أقداره المستترة عن البشر، وأن عليهم أن ينظروا للقدَر المؤلم بعين البصيرة ليعرفوا عواقب المآل، كما فعل الخضر، وأن لا يتعجلوا بإنكار ما يرونه بعين البصر، التي لا تتجاوز ما بين أيديهم من الحال، كما فعل موسى– عليه السلام–.

قال ابن جرير:(وهذه القصص التي أخبر الله عز وجل نبيه محمداً – ﷺ– بها عن موسى وصاحبه، تأديب منه له، وتقدم إليه بترك الاستعجال بعقوبة المشركين الذين كذبوه واستهزؤوا به وبكتابه، وإعلام منه أن أفعاله بهم وإن جرت فيما ترى الأعين بما قد يجري مثله أحياناً لأوليائه، فإن تأويله صائر بهم إلى أحوال أعدائه فيها، كما كانت أفعال صاحب موسى واقعة بخلاف الصحة في الظاهر عند موسى ؛ إذ لم يكن عالماً بعواقبها، وهي ماضية على الصحة في

---

(١) انظر تفسير الآيات في: التفسير البسيط(١٤/٦٥) ومحاسن التأويل(١١/٤٠٧٦) وأيسر التفاسير(٣/٢٧١).

الحقيقة، وآيلة إلى الصواب في العاقبة)[١].

وعلق ابن كثير-رحمه الله- على قول الخضر: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ فقال:(أي: يحملهما حبه على متابعته على الكفر، قال قتادة:« قد فرح به أبواه حين ولد، وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره، خير له من قضائه فيما يحب» وصح في الحديث: «لا يقضي الله لمؤمن قضاء إلا كان خيراً له»[٢] وقال تعالى:﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[٣].

وقال السعدي:(إن هذه القضايا التي أجراها الخضر، هي قدر محض أجراها الله، وجعلها على يد هذا العبد الصالح، ليستدل العباد بذلك على ألطافه في أقضيته، وأنه يقدّر على العبد أموراً يكرهها جداً، وهي صلاح دينه كما في قضية الغلام، أو صلاح دنياه كما في قضية السفينة، فأراهم نموذجاً من لطفه وكرمه، ليعرفوا، ويرضوا غاية الرضا بأقداره المكروهة)[٤].

لقد قضى الله وقدر أن تكون هذه الدنيا مسرحاً للخير والشر، والنفع والضر، ولكن الشر عند أكثر الناس رديف للألم، فكل ما يؤلم البدن أو القلب من فقد موجود، أو حرمان مأمول، أو أذى بأي وجه، فهو الشر عندهم وهو الضر، وهو المصيبة، كما قال تعالى:﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ

(١) تفسير ابن جرير(١٦/٧).

(٢) رواه أحمد في المسند بنحوه، ح(٢٣٩٤٤)(٣٤٧/٣١) ورواه مسلم بمعناه، كتاب الزهد، باب المؤمن أمره كله خير، ح(٢٩٩٩)(٢٢٩٥/٤).

(٣) تفسير ابن كثير(١٠٤/٣).

(٤) تفسير السعدي، ص: ٤٨٥.

﴿أَهَٰنَنِ﴾(الفجر: ١٦).

لكن واقع أمر الله وقدره ليس كذلك، فكم من محنة في طياتها منحة، وكم من نعمة تقبل على العبد في لبوس نقمة، وكم من ضرر في الحال، هو خير في المآل، كما قال تعالى:﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ١).

إن قصة موسى والخضر تلفت الانتباه –كما قال العلماء – إلى أن لله لطفاً في أقداره المؤلمة، وأن العبرة بالمآل، لا بالحال، فالسفينة خرقت لتنجو من اغتصاب الملك الظالم، والغلام قتل ليسلم دين أبويه ودنياهما، وكذلك إقامة جدار من غير أجر في قرية اتصف أهلها بالبخل، مع شدة الحاجة للطعام؛ ليسلم للغلامين كنزهما.

وبناء على ما سبق فإن المؤمن العاقل، الخبير بسنن الله في تربية خلقه، وتهيئتهم لما خلقوا له عاجلاً وآجلاً، لا يعترض على ما لا يوائمه من أقدار الله المؤلمة، بل يحتسب الأجر أولاً، ثم يأمل لطفاً ربانياً خفياً، بصرف شر، أو جلب خير، أو تيسير رزق من حيث لا يحتسب.

قال الإمام ابن القيم: (من تمام رحمة أرحم الراحمين تسليط أنواع البلاء على العبد، فإنه أعلم بمصلحته، فابتلاؤه له وامتحانه، ومنعه من كثير من أغراضه وشهواته– من رحمته به، ولكن العبد لجهله وظلمه يتهم ربه، ولا يعلم إحسانه إليه بابتلائه وامتحانه)[1].

وقال أيضاً:(فمن صحت له معرفة ربه، والفقه في أسمائه وصفاته، علم يقيناً أن المكروهات التي تصيبه، والمحن التي تنزل به، فيها ضروب من

(١) إغاثة اللهفان(٢/٩١٥).

المصالح والمنافع التي لا يحصيها علمه ولا فكره، بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب، فعامة مصالح النفوس في مكروهاتها، كما أن عامة مضارها وأسباب هلكتها في محبوباتها)[(١)].

ويحسن في هذا المقام ذكر ثلاثة أمثلة للطف الله ببعض عباده، ممن نالهم ضر كان عاقبته رشداً، تحقيقاً لقول الله تعالى:﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ (الشورى:١٩) **أي: يوصل بره وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر، ويوصله إلى منازل رفيعة من أمور يكرهها[(٢)]:**

١– لقد قدر الله على موسى-عليه السلام- أن يقتل المصري، فيخاف، ويهرب إلى صحراء مدين، ويضطر إلى رعي الغنم سنين عدداً، بعد أن كان في عز فرعون، بل ابنه بالتبني[(٣)]، وهناك تتجلى حكمة الله في اصطناع هذا النبي، وتهيئته للأمر العظيم، من دعوة فرعون وقومه، وإنقاذ بني إسرائيل، من الذل ومن الجهل، ويتحقق فيه قوله تعالى:﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾(طه: ٤١)**، وما كان موسى ليكون هو هو لو بقي في قصر فرعون وترفه، وفق المعتاد من سنن الله، فإن للخلطة والبيئة أثراً في صناعة الرجال.**

٢– قضى الله وقدر أن يحسد إخوة يوسف أخاهم، ويلقوه في الجب، ويبيعوه بدراهم معدودة، ثم يبتلى في قصر عزيز مصر بمراودة امرأته، ثم يسجن بضع سنين، ثم يخرج من السجن سيداً عزيزاً، أنقذ الله به مصر ومن حولها من

(١) الفوائد لابن القيم، ص: ١٧٣.

(٢) انظر: تفسير السعدي، ص: ٤٠٥.

(٣) انظر: تفسير ابن جرير(٢٠/٣٣).

مجاعة ماحقة، وهيأ لبني إسرائيل نفوذاً في مصر، فانتشر دين الله قروناً متطاولة، ولذا عبر يوسف عليه السلام عن منة الله عليه بقوله: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾(يوسف: ١٠٠، ١٠١).

٣– لقد اتهمت عائشة– رضي الله عنها – بحادثة الإفك من قبل المنافقين، وهذه التهمة أفظع ما تواجهه امرأة متزوجة في مجتمع مؤمن، كان يئد البنت خوفاً من العار، وقد عبرت عن مرارة ما اعتصر فؤادها بقولها:(فأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوماً لا أكتحل بنوم، ولا يرقأ لي دمع، يظنان أن البكاء فالق كبدي)[1].

ثم كانت العاقبة نزول براءتها من فوق سبع سموات، وقرآناً يتلى إلى يوم القيامة، معلناً براءتها، وطيبها، وعظيم منزلتها عند الله، ومطلع تلك البراءة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾(النور: ١١).

إن على المؤمن إحسان الظن بربه، وليتذكر قوله –جل جلاله–:﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾(الأنفال:٦٧) فالعبد حريص على دنياه، لكن الله يصلح له دنياه وأخراه.

خامساً– الخير بيد الله والشر ليس إليه:

من يتدبر القصة يرى أن الخضر نسب العيب لنفسه في قوله:﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ ونسب الخير إلى الله في قوله:﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: «لولا إذ سمعتموه» ح(٢٧١)(٦/١٨٦).

قال شيخ الإسلام:(لا يجيء في كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ إضافة الشر وحده إلى الله، بل لا يذكر الشر إلا على أحد وجوه ثلاثة: إما أن يدخل في عموم المخلوقات...وإما أن يضاف إلى السبب الفاعل، وإما أن يحذف فاعله)[(١)].

وتأمل قول الله تعالى:﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم غَيرِ ٱلمَغضُوبِ عَلَيهِم وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ فالنعمة نسبت إلى الرب سبحانه، وحذف فاعل الغضب، ونسب الضلال إلى فاعله.

وإذا تدبرنا نصوص الكتاب والسنة تبين لنا أن الشر لا يضاف إلى الرب تعالى، لا وصفاً ولا فعلاً، ولا يتسمى باسمه بأي وجه من الوجوه، وإنما يدخل في مفعولاته بطريق العموم[(٢)].

وبيان ذلك أن الشر– وإن كان بقضاء الله وقدره– لا بد له من سبب من مخلوقاته، فالخير من الله، والشر من مخلوقاته بقدر الله، قال تعالى:﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾(النساء: ٧٩) وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيدِيكُم ﴾(الشورى: ٣٠).

قال الإمام ابن القيم:(فتبارك وتعالى عن نسبة الشر إليه، بل كل ما نسب إليه فهو خير، والشر إنما صار شراً لانقطاع نسبته وإضافته إليه، فلو أضيف إليه لم يكن شرا... وهو سبحانه خالق الخير والشر، فالشر في بعض

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام(٨/٩٤) باختصار.

(٢) انظر: شفاء العليل(٣/١٣٢٦).

مخلوقاته، لا في خلقه وفعله، وخلقه وفعله وقضاؤه وقدره كله خير... وأسماؤه الحسنى تشهد بذلك)[1]، وقد فسر ذلك بقوله:(فأسماؤه الحسنى تمنع نسبة الشر والسوء والظلم إليه، مع أنه سبحانه الخالق لكل شيء، فهو الخالق للعباد وأفعالهم... والعبد إذا فعل القبيح المنهي عنه كان قد فعل الشر والسوء، والرب تعالى هو الذي جعله فاعلا لذلك)[2].

ويشهد لهذا قول النبي ﷺ في دعاء الاستفتاح:« لبيك وسعديك، والخير كله في يديك والشر ليس إليك»[3]، وقوله -ﷺ- إذا انصرف من صلاته:« اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام»[4].

فإذا كان الله هو السلام، ومنه السلام، ومنه الخير، فلا يليق بمن ابتلي بما يكره من أقدار مؤلمة، أن يسيء الظن بربه، أو يشكوه إلى خلقه، بل يرد اللوم إلى نفسه، ويفتش عن ذنوبه، أو عمن ظلمه ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾(التغابن: ١١).

إن هذا الشعور النبيل، وهذا الإحساس الندي، بأن الله سلام، ومنه الخير والسلام، يعمق حب العبد لربه، ويصله بحبله، حتى في أحلك المواقف، وأقسى الظروف، ويقطع الطريق على الشيطان، الذي يستغل ضعف العبد عند المصيبة، فينفث في رُوعه[5] بأن ربك هو الذي فعل بك ذلك.

---

(١) شفاء العليل(٣/٩٧٦).

(٢) المصدر السابق(٣/٩٨٣).

(٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل، ح(٧٧١)(١/٥٣٤).

(٤) رواه مسلم، كتاب المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، ح(٥٩١)(١/٤١٤).

(٥) الرُّوع – بضم الراء-: النفس والخَلَد. انظر: النهاية في غريب الحديث(روع)(٢/٢٧٧).

ثم يقول له الشيطان: أين رحمته ؟! أين عدله ؟! لماذا فعل بك ذلك؟!، ونحو هذا من وساوس مظلمة قل من يسلم منها عند الكرب.

لكن إذا علم العبد أن الله لا يأتي منه إلا الخير والبر والرحمة، وأن ما أصابه من سوء– وإن كان بقدر الله – فهو بتسبب من العبد، إما بمخالفة سنن الله، أو التفريط بشرعه، أو تسلط شيطان أو ظالم عليه بذنوبه، ونحو ذلك مما قضاه الله من أسباب الشر.

إذا علم العبد ذلك، واستيقنه في فؤاده، اطمأن قلبه، وهدأت نفسه، ولم يعتب على ربه، وفتش عن قدر الله المسعد، ليدفع به قدره المكروه، ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾(النور: ٤٦).

رابعاً – من هو الخضر؟

من الشائع الذائع أن الخضر– عليه السلام– صار فتنة لبعض الطوائف، ومدخلا للزنادقة ؛ بزعمهم جواز الخروج عن شريعة محمد– ﷺ – وأن هناك مصدراً لتلقي الحق من غير طريقه[1]، وادعاء أن الخضر يمثل الحقيقة، والأنبياء يمثلون الشريعة، كما يدعي البعض التلقي عن الخضر ما يعارض الشريعة، ونحو ذلك من تلاعب الشياطين بالجهلة والعوام، ولذا أرى أنه لابد من ذكر حقيقة الخضر ونبوته وموته كعلاج لهذه الفتنة، فأقول:

لقد ذكر الله تعالى أن الخضر عبدٌ لله، آتاه رحمة من عنده، وعلمه من لدنه علماً، واختصه بشيء من علم مآلات الأمور، وعواقب الأشياء، مما جعله يفوق غيره في هذا الجانب ممن لا علم له إلا بالحال، وظواهر الأمور، ولو كان

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٤٢٢/١١).

نبياً من أولي العزم.

وقد اختلف العلماء فيه هل هو عبد ملهم، فيكون تصرفه كرامة من كرامات أولياء الله، أم نبي يوحى إليه، فهو ينفذ أمر الله.

وقد رجح الجمهور نبوته[1]، وممن مال إلى ذلك، ابن عطية، والقرطبي[2]، وابن كثير[3]، وابن حجر[4]، والشنقيطي[5]، وقد ذكروا أدلة منها:

١- أن الله وصف علمه بقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾(الكهف: ٦٥) .

والأصل في ذلك الوحي، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (النمل: ٦).

٢- قول الخضر- عليه السلام- بعد ما فعل الذي فعل: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ أي: إنما فعلته. عن أمر الله، وأمر الله إنما يتحقق عن طريق الوحي[6].

٣- قال الشنقيطي:(العدوان على أنفس الناس وأموالهم لا يصح إلا عن طريق الوحي من الله، وقد حصر تعالى طرق الإنذار في الوحي في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾(الأنبياء: ٤٥) **و«إنما» صيغة حصر، فإن قيل: قد يكون ذلك عن طريق الإلهام؟.**

---

(١) انظر: المحرر الوجيز(٥٢٩/٣) وتفسير الرازي(١٤٩/١١) وتفسير القرطبي(١٦/١١).

(٢) المحرر الوجيز(٥٣٧/٣). والجامع لأحكام القرآن(٢٨/١١).

(٣) تفسير ابن كثير(١٠٥/٣).

(٤) فتح الباري(٤٣٤/٦).

(٥) أضواء البيان(١٥٨/٤).

(٦) انظر: أضواء البيان(١٥٨/٤).

فالجواب: أن المقرر في الأصول أن الإلهام من الأولياء لا يجوز الاستدلال به على شيء لعدم العصمة، وعدم الدليل على الاستدلال به، بل ولوجود الدليل على عدم جواز الاستدلال به، وما يزعمه بعض المتصوفة من جواز العمل بالإلهام...كله باطل،)[١].

والصحيح أن الخضر مات قبل بعثة رسول الله ﷺ للأدلة التالية[٢]:

١– قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴾ (الأنبياء: ٣٤) وهذا لفظ عام لم يرد ما يخصصه.

٢– قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾(سبأ: ٢٨) فلو كان حيا للزمه اتباعه

قوله –ﷺ–:« أرأيتكم ليلتكم هذه فإن على مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد »[٣]. ولفظ «أحد» في الحديث نكرة في سياق النفي فتعم، ولا شك أن ذلك العموم يشمل الخضر[٤]. وبهذا يعلم أن ما يدعيه البعض من لقاء الخضر إنما هو شيطان من شياطين الجن أو الإنس[٥].

(١) أضواء البيان(٤/١٥٩) باختصار.

(٢) انظر: تفسير القرطبي(١١/٤١) وأضواء البيان(٤/١٦٤) ومحاسن التأويل(١١/٤٠٩٣).

(٣) رواه البخاري، كتاب العلم، باب السمر في العلم، ح(٥٧)(١/٦٦).

(٤) انظر: أضواء البيان(٤/١٦٧).

(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام(١/١٧٢-١٧٥).

المبحث الرابع: الفتنة بالتمكين وعلو المقام

من سنن الله في هذه الحياة رفع بعض الناس على بعض درجات، لِحكَم عظيمة، ومصالح جمة، بل لا تقوم الحياة على وجه النظام إلا بذلك، وقد ذكر الله تعالى بعض هذه الفوائد في قوله: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾(الزخرف: ٣٢)، وهناك الحكمة العامة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾(الفرقان: ٢٠).

إن البعض لا يتمالك حينما يرفع، ولا يصبر عندما يعظم ابتلاؤه بالتمكين، أو السلطان، أو الثراء، فيطغيه المنصب الرفيع، ويعميه الجاه البديع، ويغفل عن قضية الابتلاء والامتحان، فيستولي عليه الشعور بالإكرام والإنعام إذا رفع، والشعور بالإهانة والانتقام إن خفض، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾(الفجر: ١٠، ١١).

وقد عالجت قصة ذي القرنين قضية الابتلاء بالتمكين في الأرض، والرفعة على الخلق، لكن على سبيل ذكر النموذج الناجح في صدِّ هذه الفتنة، وردّ طغيان المنصب.

لقد اختار الله تعالى شخصية من عظماء الرجال على مدار التأريخ؛ لتكون نموذجاً لكل فرد مهما عظم قدره، وجعلها من غير الأنبياء لئلا يقول قائل: إن النبي مسدد بالوحي، فلا نصل إلى ما وصل إليه من صواب القول، وسداد الفعل.

ولعل الفقرات التالية تكشف جوانب القصة، وتزيح الستار عن مظاهر النجاح أمام فتنة تتكرر ما بقي كبير وصغير، وأمير ومأمور، وغني وفقير، وعزيز وحقير.

أولاً– من هو ذو القرنين؟:

اختلف المفسرون والمؤرخون في تعيين ذي القرنين اختلافاً كثيراً، فقيل: هو الإسكندر المقدوني، وقيل: بل من ملوك فارس، أو حمير، أو الصين، وغير ذلك مما لم ينهض عليه دليل، وسأقتصر على دراسة قولين دلل أصحابها على ما ذكروه:

١– رجح بعض المفسرين أنه الإسكندر المقدوني[١].

وصحح ذلك الرازي[٢] والقاسمي[٣].

واحتج الرازي على صحة ذلك بقوله: «دل القرآن على أن ملكه بلغ أقصى المغرب والمشرق والشمال...ومثل هذا الملْك البسيط لا شك أنه على خلاف العادات، وما كان كذلك وجب أن يبقى ذكره مخلداً على وجه الدهر، وأن لا يبقى مخفياً، والملك الذي اشتهر في كتب التواريخ أنه بلغ إلى هذا الحد ليس إلا الإسكندر»[٤].

كما احتج القاسمي لما ذهب إليه بقوله:(المرجع في ذلك هم أئمة التأريخ، وقد أطبقوا على أنه الإسكندر الأكبر بن فيلبس.. وقد أصبح ذلك من

(١) انظر: معالم التنزيل(١٩٨/٥) والبحر المحيط(٢١٨/٧)

(٢) مفاتيح الغيب(١٦٤/١١).

(٣) محاسن التأويل(٤١٠٧/١١).

(٤) مفاتيح الغيب(١٦٤/١١).

الأوليات عند علماء الجغرافيا)[1]. والجزم بذلك فيه نظر لما يأتي:

أ- أن ذا القرنين المذكور في القرآن موحدٌ مؤمنٌ بالبعث بدلالة قوله فيما أخبر الله عنه:﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ (الكهف: ٨٨)، أما الإسكندر المقدوني فقد قال عنه ابن القيم:(.. أما هذا المقدوني فكان مشركاً، يعبد الأصنام هو وأهل مملكته)[2]، وذكر ابن كثير أن المعروف بذي القرنين إثنان المقدوني الرومي، والمذكور في القرآن، وهو ممن آمن بإبراهيم عليه السلام[3].

ب- جاء في سبب النزول(أن اليهود قالوا لقريش: سلوه عن ثلاث، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان أمرهم؟.. وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح، ما هو؟)[4]، وهذا يدل على أن المذكور خفي، حتى جعل اليهود معرفته من علامات النبوة، والإسكندر المقدوني قد بلغت شهرته الآفاق.

٢- ذهب ابن عاشور أنه ملك من ملوك الصين، واستدل بما يأتي:

أ- اشتهار أهل الصين بالصناعة.

ب- أن معظم ملوكهم كانوا أهل عدل.

ت- أن من سماتهم تطويل شعورهم، وجعلها ضفيرتين، فيظهر وجه تعريفه بذي القرنين.

---

(١) محاسن التأويل(١١/٤١٠٧).

(٢) إغاثة اللهفان(٢/١٠٢٨).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير(٣/١٠٦).

(٤) ذكر السيوطي في الدر المنثور(٩/٤٧٩) أنه أخرجه ابن إسحاق وابن المنذر وأبو نعيم، والبيهقي في الدلائل، ورواه ابن جرير أيضاً(١٥/١٥٥) مرسلاً عن قتادة بسند صحيح.

ث– أن سداً عظيماً لا يعرف له نظير في العالم هو موجود بين بلاد الصين والمغول.

ج– حديث: «ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج هكذا»[(١)].

قال: (وقد كان زوال عظمة سلطان العرب على يد المغول في بغداد، فتعين أن يأجوج ومأجوج هم المغول، وأن الردم المذكور في القرآن هو الردم الفاصل بين بلاد المغول وبلاد الصين، وبانيه ملك من ملوكهم)[(٢)].

والجواب: إن الأدلة الثلاثة الأولى لا تختص بأهل الصين، بل يشاركهم فيها غيرهم، وأما وجود سور عظيم في الصين فظاهر القرآن يدل على أنه ليس المراد لما يأتي:

١– سور الصين يبلغ طوله نحواً من ألف ومائتين وخمسين ميلاً[(٣)]، وهو يمرُّ بسهول وهضاب وجبال، وهذا يخالف ظاهر قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ والصدفان: الجبلان، كما صح عن ابن عباس[(٤)].

٢– أن سور الصين مبني بالحجارة والآجر وبعضه من الطين[(٥)]، أما سور ذي القرنين فقد أخبر الله أنه مبني بالحديد والنحاس.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الفتن، ح(٧٨)(٩/١١٠)، ومسلم، كتاب الفتن، ح(٢٨٨٠)(٤/٢٢٠٧).

(٢) انظر: التحرير والتنوير(١٦/٢٢).

(٣) انظر: محاسن التأويل(١١/٤١١٥) والتحرير والتنوير(١٦/٣٥).

(٤) تفسير ابن جرير(١٦/٢٥).

(٥) انظر: التحرير والتنوير(١٦/٣٥).

وأما الاستدلال بحديث:« فتح من ردم يأجوج ومأجوج هكذا» ففيه نظر أيضاً؛ لأن سبب قدوم التتار إلى بلاد المسلمين هو اعتداء السلطان علاء الدين خوارزمشاه[1] على تجار التتار ثم اقتتاله مع جند التتار[2]، وكان قدومهم من جهة بلاد التركستان[3].

ومما يدل على أنه لا علاقة ليأجوج ومأجوج بسور الصين أنه قد تهدم من دهر[4]، مما يدل على أنه ليس هو الحائل دون خروجهم.

٣–ومما يقطع ويؤكد أن سور ذي القرنين ليس هو سور الصين، بل فيه جانب خفي حديث أبي هريرة–رضي الله عنه– عن رسول الله–ﷺ– أنه قال: «إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً، فيعودون إليه كأشد ما كان»[5].

---

(١) هو علاء الدين خوارزمشاه محمد بن خوارزمشاه إيل رسلان، من عظماء سلاطين خوارزم كان شجاعا شهما معجبا بنفسه، استولى على بلاد خراسان وما وراء النهر ثم العراق وأباد ملوكا، ثم هاجم التتار فانهزم فدخلوا بلاد الإسلام وعاثوا فيها فسادا(ت:٦١٧هـ).انظر:الكامل(٣٧١/١٢) والسير(١٣٩/٢٢)

(٢) البداية والنهاية(٩١/١٧).

(٣) المصدر السابق(٨٩/١٧).

(٤) انظر: محاسن التأويل(٤١١٥/١١).

(٥) رواه أحمد في المسند،ح(١٠٦٣٢)(٣٦٩/١٦). وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، ورواه الترمذي، ح(٣١٥٣) وقال: حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، ح(٢٢٧٦)(٤٥٢/١).

ولذا أرى أن لا يحدد المراد بذي القرنين، ولا سده، ولا يأجوج ومأجوج، بل يترك الأمر مبهماً كما أبهمه الله؛ لأن المراد أخذ العبرة، والاستفادة من القصة، لا المعلومة التاريخية الفجة، وليعلم أن للبشرية وجوداً وتأريخاً وحضارة قبل تدوين التأريخ، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾(الإسراء: ٨٥).

ثانياً: مظاهر عظمة مُلْك ذي القرنين:

دلت الآيات على أن ذا القرنين تهيأت له الأسباب، فبلغ شأواً عظيماً، وأسس مملكة مترامية الأطراف، ومن أدلة عظمة شأنه، واتساع سلطانه ما يأتي:

١) قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أعطيناه المقدرة على التصرف فيها[١]، ومَلَك الأرض، ودانت له الملوك[٢].

٢) قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ أي: أعطيناه طريقاً موصلاً إليه، من علم أو قدرة أو آلة[٣].

٣) الإخبار عنه أنه بلغ مغرب الشمس ومطلعها، أي بلغ الغاية التي يمكن الوصول إليها، وهذا يدل على اتساع ملكه.

٤) رفض ذي القرنين المال الذي عرض عليه لبناء السد، وقوله: ﴿مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ﴾ (الكهف:٩٥) وهذا مما لم تجر به العادة، مما يدل على البسطة والغنى التام.

---

(١) التحرير والتنوير(١٦/٢٤).

(٢) المحرر الوجيز(٣/٥٣٨).

(٣) محاسن التأويل(١١/٤٠٩٩).

ثالثاً: مظاهر نجاح ذي القرنين أمام فتنة السلطان:

إن من يتدبر هذه القصة تأخذه الدهشة من نجاح هذا السلطان أمام فتنة الملك، وزخارف الحياة الدنيا، وكيف صار نموذجاً ناجحاً للملك العادل، الذي حمل الأمانة بصدق، ولم يظهر على سيرته فتور أو استرخاء، أو تقصير أو اعتداء، وتبرز ملامح هذه الشخصية، ومعالم هذا النجاح فيما يلي:

١) أن ذا القرنين على الرغم من تمكين الله له، وإيتائه من كل شيء سبباً، قد عرف قوانين السنن الإلهية، واتبع الأسباب، فلم يفرط فيها، ولم يعارضها، بدلالة قول الله تعالى عنه:﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾(الكهف: ٨٥) قال سعيد بن جبير في قوله: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ علماً، وهكذا قال عكرمة والسدي[١].

وقال الراغب:(معناه: أن الله تعالى آتاه من كل شيء معرفة وذريعة يتوصل بها، فأتبع واحداً من تلك الأسباب)[٢] ولاشك أن المتابعة للأسباب من أسرار تمكينه في الأرض.

وكثير ممن يمكّن لهم يخالفون بعض سنن الله الكونية، إما جهلاً بها، أو اغتراراً بقوتهم، فلا يحصلون على كل بغيتهم.

٢) أن ذا القرنين على الرغم مما أعطي من ملك ومال وجاه، لم يحدَّ ذلك من طموحه، بل جاهد حتى وصل إلى الغاية، قال القاسمي:(لا ينبغي أن يعد ركوب البحر، ولا اجتياز القفر، عذراً في الخمول، والرضا بالدون، بل ينبغي أن ينشط ويمثل في مرارته حلاوة عقباه، من الراحة والهناء، كما قضى الإسكندر عمره ولم يذق إلا حلاوة الظفر، ولذة الانتصار، إذ لم يكن من

---

(١) تفسير ابن كثير(٣/١٠٧).

(٢) المفردات: ص: ٢٢٠.

الذين تقعدهم المصاعب عن نيل ما يبتغون)[١].

وكثير ممن يمكن لهم لا يستمرون في الكفاح، وتتابع النجاح، بل يقنعون ببعض ما يمكن إنجازه إخلاداً إلى الراحة، وتلذذاً بحلاوة العجز والكسل.

٣) أن ذا القرنين قد وضع له دستوراً، وانتهج سياسة تتمثل في عقوبة المسيء، وثواب المحسن، وهذا يقتضي تقريب الصالح، وإبعاد الفاسد، فالمحسن يجد الثواب والكرامة، والظالم يجد العقوبة والإهانة، وهذا يصلح الرعية، ويُقوّم أخلاقهم، ويحفزهم على فعل الخيرات، وترك المنكرات، وأغلب الناس تبع لسياسة حاكمهم.

٤) دلَّ قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾(الكهف: ٨٨) على أنه يجمع في الجزاء بين الإحسان الفعلي والثناء القولي، ومعلوم أن الناس لا يسعهم المال، وإنما تسعهم الأخلاق الطيبة، والمعاملة الكريمة.

٥) دلَّ قول ذي القرنين: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾(الكهف: ٨٧) على أنه لا يبالغ في العقوبة، لكنه لا يهملها، وهذا خير ما يستصلح به الرعية، إذ إن المبالغة فيها تولد النفرة والبغضاء بين الحاكم والشعب، كما أن إهمالها يجرئ السفهاء على إحداث الفوضى، والإخلال بأمن الناس ومعاشهم.

٦–كبح جماح الكبر، والتواضع للمستضعفين، والنظر في مطالبهم، فهو

(١) محاسن التأويل(١١/٤١٠٤).

سمع شكاية المظلومين، على الرغم من صعوبة التفاهم معهم؛ لكونهم: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾(الكهف: ٩٣)، ثم حقق مرادهم، مع عدم استفادته شيئاً دنيوياً، وهذا دليل الرحمة بالرعية، والتواضع لهم، ورفع الظلم عنهم.

٧- التعفف عن أموال الرعية، والزهد في أخذ أجرة مقابل بناء السد، حيث رد ما عرضوا عليه من خراج بقوله: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ وإذا كانت هذه العفة مقابل عمل وإحسان للرعية، فهو أجلُّ من أن يجبي منهم أموالاً بغير حق.

٨- إدارة الأمور بنفسه، والإشراف على العمل، وعدم الاتكال على النواب، بدلالة قوله: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾(الكهف: ٩٦) مما يدل على حضوره في موقع العمل، وكثير من المشاريع العملاقة لا تؤتي ثمارها لعدم الرقيب.

٩- العناية بالأمن، وتحصين الحدود، من أبرز أعمال ذي القرنين.

١٠- التواضع بنسبة الفضل إلى الله، فذو القرنين يتحدث بنعمة الله بقوله: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾(الكهف: ٩٥)ويحيل إلى توفيقه بقوله: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ (الكهف: ٩٨).

١١- عدم الاغترار بهذه الدار، واستحضار الدار الآخرة، فهو مع ما أعطي من بسطة في الدنيا، وفي لحظات الإنجاز الكبير، وبناء السد العظيم، يتذكر الآخرة، فيقول: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (الكهف: ٩٨).

١٢- يؤخذ من سياق القصة أن ذا القرنين حمل همّ الأمانة، وقام بأعباء التكاليف، وصارت مصالح رعيته شغله الشاغل، وهذا هو الواجب على كل من ولاه الله أمراً، أو كلفه بمسؤولية، بأن تكون المصلحة العامة فوق كل

اعتبار، أو مصلحة خاصة، أو راحة بدن أو بال.

ومن الجدير بنا الاعتبار بهذه القصة، وتذكر أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا، فذو القرنين قد خلّد الله ذكره، وأعلى شأنه؛ لحسن سجاياه، وكريم مزاياه، من العلم والصبر، والإيمان والشجاعة، والعفة والعدل، وحسن التدبير، مما رفع له قدراً، وخلد له ذكراً، وذُكِر اسمه في أعظم كتاب، وأثنى عليه الملك الوهاب، وقديماً قيل:(بالصبر واليقين، تنال الإمامة في الدين).

المبحث الخامس: فتنة الغلو بالأنبياء والأولياء

من حكمة الله البديعة، وتهيئته هذه الدار، لتكون موطن ابتلاء واختبار، أن رفع بعض البشر على بعض مادياً أو معنوياً؛ كما قال تعالى:﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ (الفرقان: ٢٠).

وأكبر من رفع الله منزلتهم، وأعلى شأنهم الأنبياء؛ بوحيه إليهم، ومنحهم من صفات الجمال والكمال ما يأخذ بالألباب، ويستولي على المشاعر، ثم يعقبهم الأولياء والصالحون، إذ لهم منزلة عند محبيهم، ومكانة عند مريديهم، مما يهيئ – عند غلبة الجهل – لفتنة ماحقة، وبلية حالقة، ستتضح معالمها، ويتبين شررها، في ثنايا المطالب التالية:

أولاً: تحرير المراد بهذه الفتنة:

إن المشاعر القلبية إذا لم تضبط بضوابط الشرع، وتزمُّ بأزمة الكتاب والسنة، تحولت إلى شعائر تعبدية، وصرف الشيطان عبادة الخالق إلى عبادة المخلوق، تحت ستار الحب والتعظيم، وطلب الوسيلة، والتماس الشفاعة، وكل ذلك نتيجة الغلو في محبوب، من نبي أو ولي.

لقد عُبدت الأنبياء كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ (المائدة: ١١٦).

وعُبدت الملائكة، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمْ﴾ (الزخرف: ٢٠).

وعُبد الصالحون كما قول تعالى:﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾(الأحقاف: ٥، ٦).

وعُبد الأحبار والرهبان:﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾(التوبة: ٣١).

بل عبدت الأشجار والأحجار، والشمس والقمر... وغير ذلك مما يقدسه الإنسان، ويحسنه الشيطان، على الرغم من بيان القرآن لقضية التوحيد أتم بيان.

وكل ذلك نتيجة غلو في الأشخاص والأشياء، ومبالغة في الإطراء والإدعاء[1]، مما ولد في النفوس تألهاً وتعبداً، وخضوعاً وخنوعاً، وميلاً جارفاً لعبادة إله يُرى ويُشاهد، كما قال أصحاب موسى:﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ (الأعراف: ١٣٨).

(١) انظر: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، ص: ٢٢٦، والتمهيد لشرح كنات التوحيد، ص:٢٥٤.

ثانياً: حقيقة الغلو بالأنبياء والصالحين وخطورته:

الغلو: الارتفاع، ومجاوزة الحد في كل شيء[١].

والمراد بالغلو بالأنبياء والأولياء: مجاوزة الحد في مدحهم وإطرائهم، والكذب في ذلك[٢]، ويندرج في ذلك إعطاؤهم تصرفاً في الكون، أو منحاً للخير، أو منعاً للشر[٣] محادة لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ (الأعراف: ١٨٨).

وقد نهى الله ورسوله عن الغلو في الدين عموماً، وفي الأنبياء والصالحين خصوصاً، فقال تعالى:﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ (المائدة: ٧٧) **وقال ﷺ:«لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله»[٤] وقال أيضا: «إياكم والغلو في الدين فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين»[٥].**

وللغلو في الأنبياء والأولياء وإطرائهم، ورفعهم فوق منزلتهم التي وضعهم الله فيها، مفاسد ماحقة، ومخاطر ساحقة، تفسد على المرء دينه، وتحرمه من الفوز في الآخرة، ويظهر ذلك فيما يلي:

١– إن أساس الشرك، ومنبعه، ومبعثه، تعظيم مخلوق[٦]، وإضفاء صفات

(١) لسان العرب(غلا)(١٥/١٣٢).

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث(طرا)(٣/١٢٣) وتيسير العزيز الحميد، ص٣٠٥.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام(٢٧/٦٤).

(٤) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب: يا أهل الكتاب لا تغلوا.. ح(٢٤١)(٤/٣٢٣).

(٥) رواه أحمد، ح(١٨٥١)(٣/٣٥٠)وقال محققوه: صحيح على شرط مسلم، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، ح(٢٦٨٠)(١/٥٢٢).

(٦) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام(٣/٣٩٥)(١٧/٤٦٠).

الألوهية والربوبية عليه، من القدرة على ما لا يقدر عليه إلا الله، ومن ادعاء علم الغيب، ومنح البركات، وكشف الكربات، وجلب الخير، ودرء الضر، ومن ثم يُتخذ نداً لله، وتتوجه له القلوب بالتأله والتضرع، وتتحول المشاعر نحوه إلى شعائر تعبدية، كما قال تعالى:﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾(الزمر: ٣).

٢- إن بالتوجه لمخلوق في كشف الضر، وجلب الخير، ينهدم أصل الدين، وتتساقط أركانه، وتتهاوى قواعده، ولا يصح للعبد عقيدة ولا عمل، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾(الزمر:٥) .

والغلو في الأنبياء والأولياء هو الممهد لعبادتهم في كل زمان ومكان، كما قال تعالى عن المشركين:﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الصافات: ٩٧-٩٨)، بل إن بعض الغلاة يحصل له عند قبور الصالحين من الانفعال، والخشوع، والرغبة والرهبة ما لا يحصل له إذا وقف بين يدي الله.

قال شيخ الإسلام:(النفوس قد أشركت بتماثيل القوم الصالحين، وبتماثيل يزعمون أنها طلاسم للكواكب، ونحو ذلك، فلأن[1] يشرك بقبر الرجل الذي يعتقد نبوته أو صلاحه، أعظم من أن يشرك بخشبة أو حجر على تمثاله، ولهذا نجد أقواماً كثيرين يتضرعون عندها، ويخشعون، ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في المسجد، بل ولا في السحر، ومنهم من يسجد لها)[2].

(١) في الأصل: فإن. والتصحيح من تعليق المحقق.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم(٢/٦٨٠).

٣- التعرض للعنة الله كما قال رسول الله ﷺ:« لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحذر مثل ما صنعوا»[١].

٤- محاداة الله ورسوله، بارتكاب المحظور، فقد قال رسول الله ﷺ:«ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك»[٢].

وقال رسول الله ﷺ أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله»[٣].

قال أبو العباس القرطبي:(ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي ﷺ فأعلوا حيطان تربته، وسدوا المداخل إليها...ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة...فبنوا جدارين من ركني القبر الشمالي، وحرفوهما، حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال، حتى لا يتمكن أحد من استقبال القبر)[٤].

وقال أبو الوفاء ابن عقيل البغدادي[٥]: (لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، ح(٩٦)(١/١٨٩)، ومسلم، كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، ح(٥٢٨)(١/٣٧٥) واللفظ له.

(٢) رواه مسلم، كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، ح(٥٣٢)(١/٣٧٧).

(٣) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب الصلاة في البيعة، ح(٩٥)(١/١٨٩).

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم(٢/ ١٢٨).

(٥) هو العلامة الفقيه المتكلم أبو الوفاء علي بن عقيل البغدادي،، كان من أوعية العلم، مع ما فيه من بدعة وانحراف عن السنة، توفي عام(٥١٣هـ). انظر: سير أعلام النبلاء(١٩/٤٤٣).

فسهلت عليهم، إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم، قال: وهم عندي كفار بهذه الأوضاع، مثل: تعظيم القبور وإكرامها بما نهى عنه الشرع)[1].

وقد ذكر الإمام ابن القيم بضعاً وعشرين سنّة في أهل القبور، وثمانية مناهي، وأكثر من خمس عشرة مفسدة للغلو في الأنبياء والأولياء، مع مضادة هؤلاء الغلاة لدين الله بارتكاب المناهي، وتعطيل السنن[2]، ثم قال:(ومن جمع بين سنة رسول اللهﷺ - في القبور، وما أمر به، ونهى عنه، وما كان عليه أصحابه وبين ما عليه أكثر الناس اليوم، رأى أحدهما مضاداً للآخر، مناقضاً له، بحيث لا يجتمعان أبداً)[3].

أقول: هذا في القرن الثامن، والإسلام عزيز، والقرآن في الصدور، والعلماء كثر، وشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قائمة، فكيف بعصرنا الحاضر، وقد نبغت الزنادقة، وتمكنت الملاحدة، وغلبت الشهوة، واندرس الإسلام في أكثر القلوب، فلم يبق إلا اسمه، فقد غابت حقائقه، وانطمست معالمه، وصار الداعي إلى توحيد الله وتوقيره وتعظيمه، وتحكيم كتابه في أعظم قضية، كالنبي في بيئة وثنية، يلمز بالعظائم، وينبز بالجرائم، ويتهم بتكفير الموحدين، وبالنهي عن عبادة الأنبياء والصالحين، مكررين مقولة سلفهم:﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾(ص: ٥)، وصدق رسول الله -ﷺ- في قوله:« بدأ

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم(١/٣٥٢).

(٢) المصدر السابق(١/٣٣٠-٣٧٥).

(٣) المصدر السابق(١/٣٥٣).

الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ»[1].

ثالثاً: القدْر الجائز من تعظيم النبيﷺ:

إن تعظيم سيد ولد آدم –عليه السلام– وتوقيره وتقديره لازم من لوازم الإيمان به، ولكن لا يعني هذا التعظيم صرف العبادة له– كما يزعم الغلاة– بل له حق معلوم، وحد محدود، لا ينبغي تجاوزه، وفق ما جاء في الكتاب والسنة، على النحو التالي:

١– التعظيم بالقلب:

وذلك باعتقاد نبوته ورسالته، وأنه سيد ولد آدم، وتقديم محبته على النفس والولد والناس أجمعين، وحب ما يحب، وبغض ما يبغض.

٢– التعظيم باللسان:

وذلك بكثرة الصلاة عليه، والثناء عليه وفق ثناء الله عليه، وثنائه على نفسه، من غير غلو، ثم ذكر فضائله، ودراسة سيرته، وسؤال الله له الوسيلة، والذب عن عرضه، ونحو ذلك مما أذنت به شريعته.

٣– التعظيم بالجوارح:

ويكون بصدق المتابعة لسنته، وتحكيم شريعته، ونصرة سنته وأوليائه، والجهاد لإعلاء دينه، ونشره في الآفاق، ويندرج في ذلك الأدب عند زيارته، وخفض الصوت في مسجده وعند قبره.

وينتج من تعظيمه بالقلب واللسان والجوارح جعله قدوة وأسوة، في الأقوال والأعمال والاعتقادات، مع تمثل هديه وأخلاقه، عن حب وتقدير، امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا...ح(١٤٥)(١/١٣٠).

(الأحزاب: ٢١).

قال الشيخ سليمان بن عبدالله[١]:(فالتعظيم النافع هو التصديق فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانتهاء عما عنه نهى وزجر، والموالاة والمعاداة والحب والبغض لأجله، وتحكيمه وحده، والرضى بحكمه...

ثم قال:(والله سبحانه يشهد، وكفى به شهيداً، وملائكته ورسله وأولياؤه أن عُبّاد القبور، وخصوم الموحدين ليسوا كذلك)[٢].

وإذا عرف حق النبي -ﷺ- في التعظيم عرف حق الأولياء والصالحين، من محبتهم، والاقتداء بهديهم، والدعاء لهم، والتعرف على سيرهم، وذكر فضائلهم، وستر عيوبهم، والإكثار من هذا الدعاء:﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ (الحشر: ١٠).

رابعاً: منهج السورة في علاج الغلو بالأنبياء والأولياء:

لقد تبين لنا من الفقرات السابقة، أن الفتنة بالأنبياء والصالحين من أعظم الفتن، بل هي أعظمها، فهي أيسر السبل للانسلاخ من الدين، وعداوة رب العالمين.

إن من يدرس تأريخ الديانات، وحالة الأمة الإسلامية وتطبيقها لدينها، يتبين له خطورة هذه الفتنة، وقدرة الشيطان على دغدغة عواطف الجاهل، ثم يرقّيه شيئًا فشيئا حتى يكون محاداً لله، معارضاً لكتاب الله، منابذاً لسنة رسول الله، مندرجاً في قول الله:﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ

---

(١) هو العلامة الفقيه المحدث سليمان بن عبدالله آل الشيخ، عرف بالصلاح والزهد والورع، مع ذكاء حاد، وحفظ نادر، وانقطاع للعلم، قتل في الدرعية إبان استيلاء الجيوش التركية عليها عام١٢٣٣هـ. انظر: علماء نجد خلال ثمانية قرون(٢/٣٤١).

(٢) تيسير العزيز الحميد، ص٣١٦.

﴿يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾(الكهف ١٠٤، ١٠٣).

وبما أن سورة الكهف تعالج أوضار الفتن، وآثارها وأضرارها، فقد كانت هذه الفتنة من أوليات ما اعتنت به، بقطع الجذور التي تمدها، والقضاء على البذور التي تنتجها، ومنح المؤمن نورا يميز به الحق من الباطل، والمشروع من الممنوع، ولعل في الفقرات التالية ما يجلي مظاهر العلاج:

١) الحماية من الغلو بسيد المرسلين:

لقد وهب الله لسيدنا محمد ﷺ من الجمال والكمال، وباهر الصفات، وعظيم المعجزات، ما يبهر البصائر، ويستجيش الضمائر، ويهز المشاعر، ولذا جاءت سورة الكهف بحواجز رادعة، وعقبات مانعة، حتى لا تتحول مشاعر محبي هذا النبي الكريم إلى شعائر، فتنتكس معالم دعوته، ويصبح وهو داعية التوحيد–وسيلة شرك، محادة لقوله ﷺ:«اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد»[(١)].

ومما جاءت به السورة في هذا الشأن:

أ– وصفه بالعبودية في مطلع السورة، وفي أعلى حال ومقام، وهو إنزال الكتاب عليه، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾(الكهف: ١).

والعبودية تعني: أنه مملوك لا يملك شيئاً، ولا نفعاً ولا ضراً.

كما تعني أنه محب لله خائف منه، راجٍ له. فكيف يعبد العبد المملوك لله ؟!

ومن لطائف هذا الكتاب العزيز أن الله تعالى كلما رفع نبيه فوق سائر الناس وصفه بالعبودية، ففي الإسراء يقول الله تعالى:﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾(الإسراء:١).

(١) رواه أحمد ح(٧٣٥٨)(٣١٤/١٢) وقال محققوه: إسناده قوي.

وفي المعراج وبلوغ سدرة المنتهى يقول الله تعالى:﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾(النجم: ١٠)، وفي حال إنزال القرآن عليه يقول سبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ (الفرقان: ١)، وحين تتنزل عليه الملائكة بالروح يقول الله:﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ ﴾(النحل: ٢) وعند ذكر كتابه الذي أعجز الجن والإنس يقول تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾(البقرة: ٢٣) وفي حال انتصاره في بدر بمعجزة ربانية، يقول الله:﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ ﴾ (الأنفال: ٤١) وفي مقام الدعوة إليه يقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ (الجن:١٩).

وكل هذا لبيان أن الرسول ﷺ مهما علا قدره، وارتفع شأنه، وجمع الله له من صفات الجمال والكمال، وباهر الجلال فهو عبد لا يعبد، ولا يملك ضرا ولا رشدا، بل هو رسول يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام.

ب– وصفه بالبشرية، وذلك في خاتمة السورة في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾(الكهف: ١١٠).

وقد أكدت بشريته بمؤكدين: أداة الحصر «إنما» والوصف بالمثلية، مما يعني أنه لا يخرج عن البشرية بأي حال من الأحوال، فمن ادعى أنه يخالف البشر في شيء من الأمور عدا إنزال الوحي عليه فهو ممن افترى على الله الكذب، وكذب بآياته، وهذا مروق من الدين، وانسلاخ من الإسلام.

إن الوصف بالبشرية تعني أنه لا يعلم الغيب، ولا يتصرف في الكون، ولا يجلب رزقاً، ولا يدفع ضراً، كما قال تعالى:﴿ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ (الجن: ٢١).

ج– وصف الرسول ﷺ بالنسيان، وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾(الكهف: ٢٤) وبالحزن والأسف في قوله تعالى:﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾(الكهف: ٦) وكل هذا تأكيد لبشريته.

د– توجيهه بالأمر والنهي والتحذير، كما في قول الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾(الكهف: ٢٨).

وإذا كان هذا شأن سيد ولد آدم، وإمام المرسلين، ودرة جبين الدهر، فمن دونه من باب أولى، فليس ثمت مخلوق يرتقي إلى أن يكون معبوداً من دون الله، بل كلهم عبيد له، خاضعون لأمره، لا يملكون رزقاً ولا نفعاً ولا ضراً، قال تعالى:﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾(مريم: ٩٣) وقال سبحانه:﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾(الأنعام:١٧).

٢) التأكيد على توحيد العبادة:

في قول الله تعالى:﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾(الكهف: ١١٠)، التأكيد على قضية صرف العبادة لله وحده، لا شريك له، وذلك من ثلاث نواحٍ:

أ– قوله:﴿ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ والإله هو المعبود[1]، وفي لسان

(١) انظر: المفردات(إله) ص٢١، وأساس البلاغة(إله) ص٢٠.

العرب:(الإله: الله عز وجل، وكل ما اتخذ من دونه معبوداً إله عند متخذه، والجمع آلهة، والآلهة: الأصنام، سموا بذلك لاعتقادهم أن العبادة تحق لها)[1] وبناء على هذا: فإن عباد المقبورين لهم آلهة كثر، ولم يندرجوا في قوله:﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ كالمسلمين.

ب– قوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ فالعمل وحده لا يكفي، بل لا بد من التنزه عن الشرك، فالعابد المشرك يهدم ما يبني، وهو كمن يتوضأ وينقض وضوءه قبل الصلاة، ولقد أكد القرآن حبوط عمل كل مشرك مهما علا قدره، كما قال تعالى:﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾(الزمر: ٦٥).

ويؤخذ من توجيه الخطاب للمعصوم ﷺ أنه لا أحد لا يضره الشرك، كمن يحتج بأنه مسلم، أو أن كلمة الإخلاص تعصمه من الشرك، وهذا وهم زائف، إذ إن من شروط نفع كلمة الإخلاص الثبات عليها حتى الوفاة، ومن نقضها بشرك فهو من جملة المرتدين، الذين قال الله فيهم:﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾(البقرة:٢١٧).

ت– قوله تعالى:﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ إذ إن لفظ «أحد» نكرة في سياق النهي فتعم كل أحد[2] سواء كان نبياً أو ولياً أو ملكاً، في حال رغبة أو

(١) لسان العرب(إله)(١/٤٦٧).

(٢) انظر: القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن،ص:٦٧.

حال رهبة، فالعبادة لا تصلح إلا لله الواحد الأحد، كما قال تعالى:﴿ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ (الزمر: ٢).

٣) العداء بين الأولياء وعابديهم:

إن ولي الله هو المؤمن التقي كما قال تعالى:﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾(يونس: ٦٢، ٦٣).

وولي الله موافق لمراد الله الشرعي، محب لما يحب، ومبغض لما يبغض، ولذا لا بد أن تكون بين أولياء الله وبين المشركين عداوة، سواء عبدوهم، أو عبدوا غيرهم، وقد سجلت سورة الكهف هذه العداوة في موضعين:

الأول–في قوله تعالى:﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَ ﴾ (الكهف: ١٠٢).

والمعنى: أفحسب الكفار أن عبادة الصالحين هي الطريق إلى ولايتهم لهم، ونفعهم إياهم؟! كلا بل هي العداوة والبغضاء، والبراءة منهم في الدنيا والآخرة.

قال السعدي:(هذا برهان وبيان لبطلان دعوى المشركين الكافرين، الذين اتخذوا بعض الأنبياء والأولياء شركاء لله، يعبدونهم، ويزعمون أنهم يكونون لهم أولياء ينجونهم.. لا يكون ذلك، ولا يوالي ولي الله معادياً لله أبداً)[1].

والآية تتضمن معنى آخر– هو الأظهر– وهو رسالة إلى كل من زعم أنه يمكن اتخاذ عباد الله أولياء للنفع أو كشف الضر إذ هو واهم في حسبانه، كاذب في ادعائه، فلا يملك الخير، ولا يدفع الشر إلا الله وحده، كما قال تعالى:﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴾

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٤٨٧.

(الإسراء: ٥٦).

قال أبو السعود:(وفيه تخطئة في حسبانهم، وتهكم بهم، حيث كان اتخاذهم إياهم أولياء من قبيل إعتاد العتاد، وإعداد الزاد، ليوم المعاد، فكأنه قيل: إنا أعتدنا لهم مكان ما أعدوا لأنفسهم من العدة والذخر جهنم عدة)[1].

الثاني– في قول الله تعالى:﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ۝ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ ﴾(الكهف: ٥٢،٥٣).

والمعنى: واذكر حال من أشرك بالله يوم القيامة، حين يقول الله لهم: نادوا من زعمتم أنهم شركاء لي لينفعوكم،﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾ لأنهم أولاً لا يملكون لهم نفعاً ولا ضراً، ولأنهم أعداء لهم، إذ لو كانوا قادرين على نفعهم ما نفعوهم للعداوة التي بينهم، ولذا قال الله تعالى:﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ أي: جعلنا بين المشركين وشركائهم الصالحين عداوة[2]، أو مهلكاً[3] يفصل بينهم، ويبعد بعضهم عن بعض، قال السعدي:(ويتبين حينئذٍ عداوة الشركاء لشركائهم، وكفرهم بهم، وتبريهم منهم، كما قال تعالى:﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾(الأحقاف: ٦)[4].

٤) تقبيح الشرك، وسوء مصير فاعله:

من يتدبر السورة يكاد يجزم أن موضوعها الرئيس، والمحور الذي تدور

---

(١) إرشاد العقل السليم(٥/٢٤٨).

(٢) هذا قول الحسن البصري، انظر: تفسير ابن جرير(١٥/٢٦٤).

(٣) هذا قول ابن عباس في رواية الوالبي، وقتادة ومجاهد والضحاك، انظر تفسير ابن جرير(١٥/٢٦٤) والدر المنثور(٩/٥٧١).

(٤) انظر: تفسير السعدي ص٤٨٠.

حوله هو الشرك وبيان قبيحه، وسوء مصير فاعله، واستحقاقه العقوبة العاجلة والآجلة، وقد عالجت السورة قضية الشرك في أكثر من عشرة مواضع، أهمها:

أ- في قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾(الكهف: ١٥) بعد قول أصحاب الكهف: ﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ بيان أن الشرك أعظم الظلم، وأنه افتراء كذب على الله، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾(النحل: ١١٦).

ب- في قول أصحاب الكهف: ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ (الكهف: ٢٠) تأكيد على خسارة المشرك، وسوء مصيره، وخلوده في جهنم.

ت- في قول صاحب الجنتين: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾(الكهف: ٤٢) بيان غضب الله على المشرك، وتعرضه للعقوبة في الدنيا والآخرة.

ث- في قول الحق: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾(الكهف: ٥٣) بعد قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ﴾ تأكيد على أن المشرك مجرم، مستحق الدخول في النار.

ج- في قول الله- سبحانه: ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾{الكهف: ٥٣} بيان أن جريمة الشرك لا تغتفر،ولا تنفع فيها الشفاعة، إذا مات المرء عليها قبل التوبة.

ح- في قول الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾{الكهف: ١٠٢ } تسجيل الكفر على من اتخذ من دون الله أولياء يدعوهم، ويصرف العبادة لهم.

خ- في قول الله جل جلاله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ

بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ (الكهف: ١١٠) إعلام بأن رجاء دخول الجنة إنما هو لمن جمع بين عبادة الله، والسلامة من الشرك به، وفي هذا تيئيس للمشرك من دخول الجنة.

د- في قول الحق -سبحانه-: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾(الكهف: ٥) تعظيم لشأن الشرك وإن كان مجرد قول، فكيف بالفعل.

٥) -التحذير من اتخاذ المساجد على القبور:

قد يظن من لا علم له أن في هذا الخبر: ﴿فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾{الكهف:٢١} دليلاً على جواز بناء المساجد على القبور، وهذا خطأ بين، يوضحه ما يأتي:

أن العلماء اختلفوا في هؤلاء الذين غلبوا، وأقسموا على بناء مسجد على أهل الكهف، على ثلاثة أقوال:

١- قيل هم الكفار، وهذا قول ابن عباس في رواية العوفي[١].

٢- وقيل: هم الأمراء والسلاطين، وهذا قول قتادة وسعيد بن جبير والسدي[٢].

٣- وقيل: هم المسلمون، من أتباع عيسى عليه السلام وقد بنوا كنيسة، ويروى هذا القول عمن يذكر الإسرائيليات كابن إسحاق، ووهب بن منبه[٣].

---

(١) تفسير ابن جرير(١٥/٢٢٥) والعوفي هو عطية بن سعد الكوفي، صدوق يخطئ كثيرا مع كونه مدلسا، مات سنة ١١١هـ.انظر تقريب التهذيب(٢/٢٤).

(٢) المصدر السابق(١٥/٢٠٠-٢٢٥).

(٣) المصدر السابق (١٥/٢٢٥).

وسياق الآية يشعر بذم الفاعلين، لأن فعلهم مبني على قهر وغلبة، لا على علم وتقوى، قال الحافظ ابن رجب:(وقد دل القرآن على مثل ما دل عليه هذا الحديث – يعني حديث لعن اتخاذ القبور مساجد– وهو قول الله عز وجل في أصحاب الكهف: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ فجعل اتخاذ القبور على المساجد من فعل أهل الغلبة على الأمور، وذلك يشعر بأن مستنده القهر والغلبة، واتباع الهوى، وأنه ليس من فعل أهل العلم والفضل، المنتصر لما أنزل الله على رسله من الهدى)[١].

أ– قال الطبري:(وقد اختلف في قائلي هذه المقالة، أهم الرهط المسلمون، أم هم الكفار)[٢] وإذا لم يعرف القائل كيف يجعل قوله حجة يتعبد به.

ب– على فرض أن القائل هم من أتباع عيسى – عليه السلام– فهم بلا شك قد ضلوا السبيل؛ لقول النبي–ﷺ–: (لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحذر ما صنعوا)[٣]، ففاعله ملعون على لسان سيد الخلق، مطرود من رحمة الله لأن دعاء النبيﷺ مستجاب.

ت– يعجب المرء من زعم من لا علم عنده بأن مثل هذا شرع لمن قبلنا[٤]، والصواب: أن هذا مخالف لشرع جميع الأنبياء، فلم يشرع بناء

(١) فتح الباري لابن رجب(٣/١٩٣).

(٢) تفسير ابن جرير(١٥/٢٢٥).

(٣) رواه البخاري، كتاب الصلاة، ح(٩٦)(١/١٨٩)، ومسلم، كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، ح(٥٢٨)(١/٣٧٥) واللفظ له.

(٤) انظر: روح المعاني للألوسي(٥/٣١).

المساجد على القبور في أي ملة من ملل الأنبياء؛ بدلالة لعن النبي ﷺ فاعل ذلك، ولو كان شرعاً لهم لكانوا يثابون عليه، ولا يلعنون، كما أخبر أن فاعلي ذلك هم « شرار الخلق»[1] وهذا عام في كل زمان ومكان.

وقد أحسن القاسمي لما نقل تردد ابن كثير فيمن أصر على بناء المسجد: هل هم محمودون أم لا ؟![2] فقال القاسمي: (وعجيب من تردده في كونهم غير محمودين، مع إيراده الحديث الصحيح بعده !، المسجل بلعن فاعل ذلك!، وهو أعظم ما عُنون به على الغضب الإلهي !، والمقت الرباني !، والسبب في ذلك أن البناء على قبر النبي والولي مدعاة للإقبال عليه، والتضرع إليه، ففيه فتح لباب الشرك، وتوسل إليه بأقرب وسيلة، وهل أصل عبادة الأصنام إلا ذلك)[3].

وخلاصة القول: أن من يتدبر منهج السورة في علاج الفتنة بالأنبياء، وتعلق قلوب الغلاة بالصالحين والأولياء، يتبين له أنها سدت منافذ الشرك، وحرست جناب التوحيد، وحفظت القلوب من الغلو المذموم بنبي أو ولي، فالغلو يهيء إلى وساوس شيطانية، تتسلل إلى الأفئدة شيئاً فشيئاً ثم تهوي بصاحبها إلى مهاوي سحيقة:﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾{ الحج: ٣١ }.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب الصلاة في البيعة، ح(٩٥)(١/١٨٩).

(٢) تفسير ابن كثير(٣/٨٢).

(٣) محاسن التأويل(١١/٤٠٣٧).

المبحث السادس: العصمة من فتنة المسيح الدجال

إن فتنة المسيح الدجال هي أعظم فتنة تمر على البشرية منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة كما قال النبيﷺ:«ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال»(١).

وقد ارتبطت سورة الكهف بهذه الفتنة لقول النبيﷺ:«من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال»(٢).

وقد يتساءل البعض عن علاقة هذه السورة بهذه الفتنة، وهل السر في العشر الأولى أم في السورة بجملتها؟ وهل تكفي التلاوة أم لا بد من الحفظ؟ وهل الأمر تعبدي محض أم لا بد من تدبر هذه الآيات والعمل بهن ؟!

لعل في الوقفات التالية ما يجلي هذه الفتنة، ويجيب عن هذه التساؤلات:

أولاً– ملامح هذه الفتنة وخطرها:

لقد ثبتت أحاديث صحيحة في شأن الدجال، من أهمها(٣):

---

(١) رواه مسلم، كتاب الفتن، باب بقية أحاديث الدجال ح(٢٩٤٦)(٤/٢٢٦٧)

(٢) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل سورة الكهف، ح(٨٠٩)(١/٥٥٥). وهذه هي الرواية المحفوظة، أما رواية " من آخر السورة " فقد رواها مسلم أيضا في نفس الموضع، وقد بين الألباني أنها شاذة لا تثبت، لما يأتي:

أن راويها شعبة خالف من هو أوثق منه وأكثر عددا.

أن شعبة لم يحفظها لأنه رواها مرة موافقا للثقات ومرة مخالفا لهم، مما يدل على تردده. انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة..(٣/٥٠٩(وسلسلة الأحاديث الصحيحة(٦/٣١٢).

(٣) استوعب ابن كثير جل ما يتعلق بالدجال، في البداية والنهاية(١٩/١١٣-٢٢٦).

الحديث الأول: عن أبي أمامة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «يا أيها الناس إنها لم تكن فتنة منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم من فتنة الدجال.. »[1] وهو حديث طويل يقارب ثلاث صفحات، واشتمل على معظم ما جاء في شأن الدجال، وقد قام الألباني– رحمه الله– بدراسة مفصلة لهذا الحديث، وذكر الشواهد الصحيحة لكل فقرة من فقراته[2]، وذكر ما صح منها في صحيح الجامع الصغير، وحذف ما لم يجد له شاهداً صحيحاً وقد دل ما صح من هذا الحديث على ما يأتي:

أ– خطر فتنته، وتحذير جميع الأنبياء منه.

ب– أنه يخرج من مكان بين الشام والعراق، وقد جاء في رواية ضعيفة(أنه يقدم من قبل المشرق إلى الكوفة، فيظهر الصلاح، ويدعو إلى دين الله، فيتبع، ثم يقول: إنه نبي، فيفارقه كل ذي لب من المسلمين، ثم يقول: إنه الله، فيفارقه كل من في قلبه ذرة من إيمان)[3].

وفي رواية صحيحة:(إنه يخرج من يهودية أصبهان)[4]، والجمع بين الروايات: أن ابتداء خروجه من هناك، واستفحال أمره في المكان الذي بين

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب فتنة الدجال، ح(٤٠٧٧)(١٣٥٩/٢) وصححه الألباني، صحيح الجامع الصغير،ح(٧٨٧٥)(١٣٠٠/٢) عدا فقرات يسيرة لم يجد لها شاهداً صحيحاً فحذفها، وقد ساق ماصح منه في الموضع نفسه.

(٢) طبع باسم: قصة المسيح الدجال على سياق رواية أبي أمامة.. الناشر: المكتبة الإسلامية، عمان.

(٣) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق(٢١٧/١) وقال ابن حجر في فتح الباري(٩١/١٣): سنده ضعيف.

(٤) رواه أحمد في المسند ح(٢٤٤٦٧)(١٥/٤١) وقال محققوه: إسناده حسن، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ح(١٢٥١٢)(٦٥١/٧): رجاله رجال الصحيح غير الحضرمي بن لاحق، وهو ثقة.

الشام والعراق، وقد تكون الكوفة، لكثرة البدع والأهواء فيها[١].

ت– أن معه جنة ونار، فناره جنة، وجنته نار.

ث– أنه يقول للناس: أنا ربكم.

ج– أنه يعيث في الأرض فساداً.

ح– أنه أعور، ومكتوب بين عينيه: كافر، يقرؤه كل مؤمن، وإن لم يكن كاتباً.

خ– أن الله لا يرى إلا بعد الموت.

د– الأمر بالاستغاثة بالله، وقراءة فواتح الكهف عليه.

ذ– من فتنته أن يقول: أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك أتشهد أني ربك؟! فيقول: نعم، فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه، فيقولان: يا بني اتبعه فإنه ربك!.

ر– أنه يسلط على رجل واحد فقط، فيقتله نشراً بالمنشار، حتى يُلقى شقين، فيزعم أنه يبعثه فيبعثه الله، لا الدجال، فيقول له الخبيث: من ربك؟ فيقول: ربي الله ! وأنت عدو الله، أنت الدجال !.

ز– من فتنته أن يأمر السماء أن تمطر، فتمطر، ويأمر الأرض أن تنبت، فتنبت.

س– من فتنته أن يمر بالحي فيكذبونه فلا يبقى لهم سائمة إلا هلكت، ويمر بالحي فيصدقونه، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت وتروح مواشيهم أسمن ما كانت.

ش– أنه يطأ كل مكان ويظهر عليه إلا مكة والمدينة، وأن الملائكة

(١) انظر كثرة الأهواء في مواطن الشيعة عامة وفي الكوفة خاصة: منهاج السنة(١/٢٢-٧٣) (٢/٤٨٦).

تحرسهما.

ص– أن المدينة ترجف ثلاث رجفات فيخرج كل منافق ومنافقة إلى الدجال.

ض– أن إمام أهل المدينة يومئذ رجل صالح، وأن عيسى –عليه السلام يوافيهم وهم يصلون الصبح فإذا صلوا أمر عيسى عليه السلام بفتح الباب، فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح فينطلق هارباً، فيدركه عند باب لدّ في بيت المقدس فيقتله.

ط– أن مع الدجال سبعين ألف يهودي، وأنهم ينهزمون بعد قتل الدجال، ويسلط الله عليهم المسلمون فيقتلونهم.

ظ– ص– أن قبل خروج الدجال ثلاث سنوات شداد، يصيب الناس فيها جوع شديد.

الحديث الثاني: عن ابن عباس . رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إن الدجال أعور جعد هِجَان أقمر، كأن رأسه غضة[1] شجرة»[2].

ومعنى جعد: خلاف السبط، وقد يطلق على الشعر القطط المفلفل[3]، وهذا هو المراد بدلالة حديث مسلم عن النواس بن سمعان، وفيه:« إنه شاب

---

(١) هكذا، ولعل الصواب: غضاة، ففي لسان العرب(غضا)(١٢٨/١٥):(الغضى: من نبات الرمل له هدب... واحدته: غضاة).

(٢) رواه ابن أبي شيبة، كتاب الفتن، ما ذكر في فتنة الدجال، ح(١٩٣٦١)(١٣٢/١٥)ورواه أحمد بنحوه ح(٢١٤٨)(٤٨/٤) وقال محققوه: صحيح لغيره، رجاله رجال الصحيح، سماك وإن كانت روايته عن عكرمة فيها اضطراب، قد توبع.

(٣) انظر: لسان العرب(جعد)(١٢١/٣، ١٢٢).

قطط »[١].

ومعنى هجان: أبيض[٢]**. ومعنى أقمر: شديد البياض**[٣].

وقوله: كأن رأسه غضة شجرة: يفسره حديث مسلم عن حذيفة، وفيه: «الدجال أعور العين اليسرى، جُفال الشعر»[٤] **أي كثير الشعر منتفشه**[٥].

الحديث الثالث: عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إني قد حدثتكم عن الدجال حتى خشيت أن لا تعقلوا، إن مسيح الدجال رجل قصير أفحج، جعد، أعور، مطموس العين، ليس بناتئة ولا حجراء، فإن ألبس عليكم فاعلموا أن ربكم ليس بأعور، وأنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا»[٦].

ومعنى الفحج: تباعد ما بين أوساط الساقين[٧]**، وقيل: تباعد ما بين الفخذين**[٨].

ومعنى مطموس العين: أي ذاهبة البصر من بغير بخق[٩].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الفتن، ح(٢٩٣٧)(٤/٢٢٥٠).

(٢) النهاية في غريب الحديث(هجن)(٥/٢٤٨).

(٣) المصدر السابق(قمر)(٤/١٠٧).

(٤) صحيح مسلم، كتاب الفتن، ح(٢٩٣٤)(٤/٢٢٤٨).

(٥) النهاية في غريب الحديث(جفل)(١/٢٨٠).

(٦) رواه أحمد في المسند، ح(٢٢٨٦٤)(٣٧/٤٢٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، ح(٢٤٥٩)(١/٤٨٣).

(٧) انظر: مجمل اللغة(فحج)(٣/٧١٢).

(٨) غريب الحديث للخطابي(١/٣٥٢).

(٩) المصدر السابق، الموضع نفسه.

ومعنى ليست حجراء: أي ليست بصلبة متحجرة، لكنها رخوة لينة، وفي رواية: جحراء: الجيم قبل الحاء، والمعنى: أنها ليست بمنجحرة غائرة[1]، عكس ناتئة.

ويؤخذ من هذا الحديث والذي قبله أن صفات الدجال بارزة، وتتمثل بما يأتي:

١- أنه أعور، لا يبصر بإحدى عينيه، وعورها بين.

٢- أنه قصير، أفحج.

٣- أنه جعد الشعر، شديد الجعودة، وأنه يطيل شعره، حتى يشبه شجرة ملتفة.

٤- أنه شديد البياض.

الحديث الرابع: عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:«من سمع بالدجال فلينأ عنه(ثلاثاً)، فإن الرجل يأتيه وهو يحسب أنه مؤمن، فلا يزال به لما معه من الشبه حتى يتبعه»[2].

الحديث الخامس: عن عبدالله بن حوالة[3]- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:«من نجا من ثلاث، فقد نجا- ثلاث مرات-: موتي، والدجال، وقتل خليفة مصطبر بالحق معطيه»[4].

الحديث السادس: عن جابر رضي الله عنه- قال: قال رسول

---

(١) المصدر السابق، الموضع نفسه.

(٢) رواه أحمد، ح(١٩٨٧٥)(١٠٧/٣٣) وقال المحققون: إسناده صحيح على شرط مسلم، ورواه أبو داود، كتاب الملاحم، باب خروج الدجال ح(٤٣١٩)(١١٦/٤).

(٣) عبدالله بن حوالة الأزدي صحابي نزل الشام، وتوفي سنة ٥٨هـ انظر التهذيب(١٧٣/٥).

(٤) رواه أحمد، ح(١٦٩٧٣)(١٧٧/٢٨) وقال محققوه: حديث حسن، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ح(١٢٤٩٦)(٦٤٥/٧): رجال أحمد رجال الصحيح غير ربيعة بن لقيط، وهو ثقة.

ﷺ:«يخرج الدجال في خفقة من الدين[(١)]، وإدبار من العلم...» وذكر حديثا طويلاً، وفيه:« ومعه جبال من خبز، والناس في جهد إلا من تبعه» وفيه:« ويبعث الله معه شياطين تكلم الناس، ومعه فتنة عظيمة، يأمر السماء فتمطر فيما يرى الناس، ويقتل نفساً ثم يحييها فيما يرى الناس، لا يسلط على غيرها من الناس، ويقول: أيها الناس، هل يفعل مثل هذا إلا الرب»[(٢)].

ويؤخذ من الأحاديث الثلاثة الأخيرة ما يأتي:

١- فظاعة الشُّبه التي معه، وأن ضعيف العلم والإيمان يتزلزل إيمانه بتلك الشبه.

٢- وجوب الفرار منه، وعدم مقابلته.

٣- أن مع الدجال شياطين من الجن، يوهمون الناس بما لا حقيقة له.

٤- أن من يعارضه يجهد، ويجوع، بخلاف من يوافقه.

٥- أنه يسلط على واحد فقط، فيقتله ثم يحييه فيما يرى الناس لا حقيقة.

٦- أنه يخرج في وقت يقل فيه العلم، ويكثر الجهل، ويضعف أهل الدين، وحينئذ يقل من يميز بين الحق والباطل، فتعظم فتنته، ويكثر ضرره.

---

(١) أي: في حال ضعف من الدين، وقلة من أهله. انظر: النهاية في غريب الحديث(خفق)(٢/٥٦).

(٢) رواه أحمد، ح(١٤٩٥٤)(٢٣/٢١١) وقال محققوه: إسناده على شرط مسلم، وأبو الزبير لم يصرح بسماعه من جابر، وقال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح، مجمع الزوائد، ح (١٢٥٢٥)(٧/٦٥٩) قلت: أبو الزبير مدلس، انظر: تقريب التهذيب(٢/٢٠٦) وقد عنعنه.

ثانياً– علاقة سورة الكهف بفتنة المسيح الدجال:

لقد ثبت عن رسول اللهﷺ عدة أحاديث تدل على أثر سورة الكهف في العصمة من الدجال، وهذه الأحاديث يخيل لقارئها عند الوهلة الأولى أنها متعارضة، إذ إن أحد هذه الأحاديث يلزم بحفظ العشر الآيات الأولى، بينما يدل الثاني على أن العصمة تكون بقراءة هذه العشر عند المقابلة، ويدل الثالث على أن الحفظ من هذه الفتنة يكون بقراءة السورة كلها يوم الجمعة، ولذا لابد من دراسة هذه الاحتمالات، وسأجعل كل حديث محتملاً الترجيح، ثم أذكر الصواب في نهاية المطاف:

الاحتمال الأول: العصمة من فتنته بحفظ الآيات العشر الأولى، وتدبرها:

وقد دل على ذلك حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال»[1].

وعلى ضوء قول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد: ٢٤) وقول النبيﷺ: «يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم..» وفيه: «يقرؤون القرآن لا يجوز حناجرهم»[2]، فإن مجرد الحفظ لا يكفي، بل ينبغي تدبر معانيها، والتأثر بها، وقد تضمنت هذه الآيات من المعاني الجليلة، والتوجيهات السديدة، ما يعصم من فتنة الدجال، وبيان ذلك فيما يلي:

---

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل سورة الكهف، ح(٨٠٩)(١/٥٥٥).

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب البكاء عند قراءة القرآن، ح(٨٠)(٦/٣٤٠).

١) أن في الآية الأولى تعظيم الله، بوصفه المستحق للحمد التام، قال ابن كثير: (الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية)[١] وهذا يعني كمال الجلال والجمال والإنعام، وتمام القدرة، وعظمة العزة، وهذا يكشف زيف ربوبية المسيح الدجال، فهو لا يستحق حمداً ؛ لنقص خلقته، وسوء فعله، وهو يبحث عن الأنصار، ويستنجد بالأعوان، ويؤسس لملك، ويعجز عن دخول مكة والمدينة، فلا يشتبه أمره إلا على جاهل مأفون العقل[٢]، مندهش بما معه من خوارق العادات، التي لا تعدو عن مشابهة تمويهات السحرة، ومن تخدمهم الشياطين.

٢) في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١ قَيِّمًا﴾ لفت القلوب والعقول إلى هذا الكتاب المنزل القيم، الذي لا عوج له، وهذا يعني الاعتصام به، واستمداد العلم منه، ولزوم تحكيمه، ومن أولويات ذلك معرفة الله على ضوئه، وهذا الكتاب يصف الله بصفات الجلال والكمال، ومن ذلك:

أ- الله جل جلاله- أحد صمد، لم يلد ولم يولد، ولا كفؤ له ولا مثيل، ولا ينصَب، ولا تأخذه سنة ولا نوم، وهذا المسيح الممسوخ إنسان كسائر البشر، يولد، ويأكل الطعام، ويقضي حاجته، وينام، ويأخذه الإعياء والنصب، فكيف يشتبه أمره بالرب العظيم ؟!!.

ب- الله جل جلاله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وهذا المأفون يقاتله المسلمون، ويعجز عن دخول مكة والمدينة.

جـ- يبين القرآن أن الله لا يرى في الدنيا، كما قال الله لموسى- عليه السلام-

(١) تفسير ابن كثير(١/٢٤).

(٢) أي ناقص العقل. انظر: لسان العرب(أفن)(١٣/١٩).

:﴿تَرَىٰنِي﴾(الأعراف:١٤٣) وقال النبي ﷺ:«لن يرى أحدكم ربه عز وجل حتى يموت»[١].

٣) في الآية الثانية والثالثة، وهما قوله تعالى:﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ تعظيم لشأن الآخرة وما فيها من خلود أبدي، إما في نعيم مقيم، أو في عذاب الجحيم.

٤) في الآية الرابعة، وهي قوله تعالى:﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ إنذار لمن قال هذا القول، ومن المعلوم أن أشهر من قال ذلك هم اليهود والنصارى، واليهود أكثر أتباع المسيح الدجال، كما في الحديث:« يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفاً»[٢]، هؤلاء من مدينة واحدة، فكيف بمن يتبعه من سائر البلدان، واليهود ينتظرون مسيحاً يخرج آخر الزمان، ويعيد لهم مجدهم ودولتهم[٣]، وفي هذا دليل على بطلان دعوى الدجال لبطلان معتقد أتباعه.

٥) في قوله تعالى:﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ التزهيد بالدنيا، والصبر على لأوائها، ووقاية الدين من فتنها، ومعظم فتنة المسيح الدجال إنما تكون من رغبةٍ لما معه من متعها، أو رهبة من زوالها عند معارضته، وقد جاء في الحديث:« فيأتي على القوم فيدعوهم، فيؤمنون به، ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض

(١) رواه مسلم، كتاب الفتن، باب ذكر ابن صياد ح(٢٩٣٠)(٤/٢٢٤٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب الفتن، باب في بقية أحاديث الدجال ح(٢٩٤٤)(٤/٢٢٦٦).

(٣) انظر: إغاثة اللهفان(٢/١١١٩).

فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم[١] أطول ما كانت ذرأً[٢]، وأسبغه ضروعاً، وأمده خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم، فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون ممحلين، ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة، فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل[٣]»[٤].

٦) في ختام الآيات العشر ذكرت قصة أصحاب الكهف، وهي تحمل عدة توجيهات، تعصم من فتنة المسيح الدجال، وقد سبق بيانها في المبحث الأول، ومنها:

أ- فرار أصحاب الكهف بدينهم ينبه المسلم إلى وجوب الفرار من المسيح الدجال وعدم مقابلته، وقد جاء في الحديث: «ليفرن الناس من الدجال في الجبال»[٥].

وفي رواية: «من سمع بالدجال فلينأ عنه، فو الله إن الرجل ليأتيه، وهو يحسب أنه مؤمن، فيتبعه، مما يبعث به من الشبهات»[٦].

ب- زهد أصحاب الكهف بالدنيا، وتخليهم عن ديارهم وأموالهم، ومراتع صباهم، يوجه نظر المسلم الخائف على دينه إلى الزهد بما مع الدجال من

---

(١) السارحة: الماشية التي تسرح إلى المرعى. انظر: التهاية في غريب الحديث(سرح)(٢/٣٥٨).

(٢) الذرى: جمع ذروة وهي أعلى سنام البعير. انظر المصدر السابق(ذرا)(٢/١٥٩).

(٣) قال الخطابي: اليعسوب: فحل النحل وسيدها...يتقدم النحل إذا طارت فتتبعه طرائق مطردة. انظر: غريب الحديث(٢/٩).

(٤) رواه مسلم، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، ح(٢٩٣٧)(٤/٢٢٥٣).

(٥) رواه مسلم، كتاب الفتن، باب في بقية أحاديث الدجال، ح(٢٩٤٥)(٤/٢٢٦٦).

(٦) رواه أحمد، ح(١٩٨٧٥)(٣٣/١٠٧) وقال المحققون: إسناده صحيح على شرط مسلم، ورواه أبو داود، كتاب الملاحم، باب خروج الدجال ح(٤٣١٩)(٤/١١٦).

زخارف الحياة الدنيا، والصبر على المصائب التي تناله بسبب رد دعوته، والكفر به.

ج– دعاء أصحاب الكهف ربهم، ولجوؤهم إليه، ينبه المسلم إلى الدعاء للسلامة من هذه الفتنة، وقد جاء عن ابن عباس –رضي الله عنهم–أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– كان يعلمهم هذا الدعاء، كما يعلمهم السورة من القرآن يقول:« قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات»(١).

الاحتمال الثاني: أن العصمة من فتنته بالسورة كلها:

ويدل على ذلك ما جاء عن أبي سعيد الخدري–رضي الله عنهم– قال:« من قرأ سورة الكهف كما أنزلت ثم أدرك الدجال لم يسلط عليه، ولم يكن له عليه سبيل»(٢).

وفي رواية: «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة»(٣).

---

(١) رواه مسلم، كتاب المساجد، باب ما يستعاذ منه في الصلاة، ح(٥٩٠)(١/٤١٣)..

(٢) رواه عبدالرزاق في المصنف كتاب الطهارة، باب وضوء المقطوع ح(٧٣٠)(١/١٨٦، والنسائي في الكبرى كتاب عمل اليوم والليلة، باب ما يجير من الدجال ح(١٧٠٨٨)(٦/٢٣٦) واللفظ لهما، والحاكم في المستدرك، كتاب الفتن،(٤/٥١١) وصححه، ووافقه عليه الذهبي.

(٣) رواه البيهقي في الشعب باب في الصلوات، فضل الصلاة على النبي..ح(٣٠٣٨)(٣/١١٢) وقال:(رويناه موقوفاً ومرفوعاً)قلت: الرواية التي تذكر الجمعة ضعيفة لأنها من رواية قبيصة بن عقبة عن سفيان الثوري، وهو يضعف فيه، انظر: تهذيب الكمال(٢٣/٤٨١) وخالف الثقات في هذه الرواية.

وهذا الأثر ثابت عن أبي سعيد موقوفاً عليه، واختلف في رفعه[١]، وهذا الاختلاف لا يضر؛ لأن له حكم الرفع؛ إذ مثله لا يقال بالرأي، وأبو سعيد لم يعرف بالأخذ عن بني إسرائيل، ثم إن معناه لا يتلقى عنهم لأنهم لا يعرفون الجمعة، ولا سورة الكهف.

وبناء على ذلك فإن الحديث يدل على أن سورة الكهف عصمة من الدجال، ووجه ذلك أنها عالجت فتناً كباراً كما مر في المباحث السابقة، فمن عصم منها تكون لديه حصانة تحميه – بإذن الله – من فتنة الدجال، ومن سقط في أوحالها، وعجز عن صدها فهو أعجز عندما يفتن بما هو أكبر منها كالدجال.

وينبغي التفطن إلى جملة «كما أنزلت» في الحديث، إذ تعني تمام الضبط، وهذا يتطلب التكرار، مما يرسخ المعاني في القلب.

ويمكن الربط بين الفتن التي عالجتها السورة بفتنة المسيح الدجال من وجوه:

١– سبق بيان علاقة الآيات العشر بهذه الفتنة.

٢– في قصة أصحاب الكهف فرار من الفتن، ونحن قد أمرنا بالفرار من الدجال.

٣– في السورة علاج للفتنة بالدنيا وزينتها، والدنيا هي سلاح الدجال كما مر.

٤– عالجت السورة الفتنة بالأنبياء والصالحين، والغلو فيهم، والدجال يتظاهر بالصلاح أولاً، قال الحافظ ابن حجر:(وأما الذي يدعيه فإنه يخرج أولاً فيدعي

(١) انظر: شعب الإيمان للبيهقي باب في الصلوات، فضل الصلاة على النبي...ح(٣٠٣٨)(١١٢/٣)، والسنن الكبرى للنسائي، ح(١٠٧٨٨)(٢٣٦/٦) ومعجم الطبراني الأوسط ح(١٤٥٥)(١٢٣/٢)، والتلخيص الحبير، ح(٦٦٤)(٧٢/٢).

الإيمان والصلاح، ثم يدعي النبوة، ثم يدعي الإلهية)[1].

وقال السفاريني:(وأول خروجه يدعي الإيمان والصلاح، ويدعو إلى الدين فيتبع)[2].

ومن أسباب الغلو بالصالحين ما يظهر الله على أيديهم من الكرامات، فيرفعهم الجهلة إلى مقام الألوهية، ويصرفون إليهم حقوق الله، وكذلك الدجال يظهر على يديه من الخوارق، وتخدمه الشياطين– كما مر– مما يخطف أبصار الجهلة، ويطمس بصائرهم، فيصدق في دعواه.

٥– في قصة ذي القرنين بيانٌ لصفات الملك الصالح العادل، الآمر بالمعروف، الناهي عن المنكر، وبها تظهر عيوب الدجال من الإفساد والظلم، والأمر بالمنكر، والتسلط على كل من خالفه، وردّ عليه دعوته.

٦– في السورة تعظيم لله، وحث على تحقيق توحيده، وصرف العبادة له وحده، والدجال يدعو إلى عبادة نفسه.

٧– في السورة تعظيم لشأن الآخرة، وبيان عظيم ثواب الأبرار، وعقاب الفجار، مما يستدعي الصبر أمام كل فتنة تفسد الدين، وعلى كل رزية تفسد الدنيا، وأعظم ذلك فتنة المسيح الدجال.

الاحتمال الثالث: أن العصمة من فتنته بقراءة الآيات العشر عليه عند مقابلته:

ويدل على ذلك حديث النواس بن سمعان– رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: «... فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف»[3].

---

(١) فتح الباري(١٣/٩١).

(٢) لوامع الأنوار البهية(٢/٨٩).

(٣) رواه مسلم، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، ح(٢٩٣٧)(٤/٢٢٥٠).

وهذا يعني أن فواتح السورة كالتعويذة من فتنته، فهي تحول بين قارئها وبينه، فلا يضره، بل ينكشف له أمره، ويعصم من فتنته.

وظاهر الحديث يدل على أن القراءة المجردة عليه كافية، لكن النصوص الحاثة على التدبر والتفكر والتعقل عن الله تدل على أنه لا يكفي مجرد التلاوة، بل لا بد من فهم المعاني، وحضور القلب، وتأثره بمعانيها، مع نطق اللسان بها.

الترجيح: الأحاديث السابقة تدل على أن العصمة من الدجال تكون بواحد من خيارات ثلاثة:

أ- حفظ العشر الآيات الأولى من سورة الكهف.

ب- قراءة هذه العشر عليه عند مواجهته.

ت- قراءة جميع السورة كما أنزلت، وبعض الأئمة يستحب ذلك كل جمعة، استناداً إلى الرواية الضعيفة لحديث أبي سعيد التي مرت[1].

ولا ينبغي ترجيح أحد هذه الخيارات، بل كلها تعويذات نافعة، وحروز مانعة، لرد أوهام الأفهام، وجمعها أولى من الاكتفاء ببعضها، كأذكار الصباح والمساء، وسائر التعويذات والتحصينات، التي تحمي المؤمن من الآفات، فالواحدة منها نافعة، وجمعها أولى وأجدى. والله أعلم.

(١) انظر: كتاب الأم للشافعي(١/٣٥٦)، والمغني لابن قدامة(٣/٢٣٦).

الخاتمة

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على النبي المجتبى، وعلى آله وصحبه ومن على أثره اقتفى، وبعد:

فقد تبين من خلال هذا البحث حكمة خلق الإنسان بهذه الهيئة، وخلق الدنيا بهذه الكيفية؛ ليتم ابتلاؤه، ويتميز خبيثه من طيِّبه، وتظهر العبودية الخاصة التي يريدها الله من هذا الإنسان، وهي العبادة المحفوفة بالمكاره، التي تخرج من جسد يتناوشه الضعف من كل وجه، وتحيط به الفتن من كل جانب، ويتسلط عليه أعداؤه من داخله وخارجه.

كما تبين عظيم رحمة الله بهذا الإنسان، حيث جعل له مخرجاً من الفتن، وخلاصاً من الأعداء، بإنزال هذا الكتاب القيم، الذي لا عوج له.

ومن أعظم السور التي أولت هذا الجانب عناية فائقة سورة الكهف، فهي كاسمها، كهف ومأوى ومعتصم، فقد عالجت أعظم الفتن التي تعترض المؤمن في سيره إلى الله وإلى الدار الآخرة، ومن أهمها:

١) الفتنة عن الدين الحق، وقد تكفلت قصة أصحاب الكهف علاج أسوأ ما يتصور من هذه الفتنة، وهي الموافقة على الشرك، أو التصفية الجسدية.

٢) الفتنة بالحياة الدنيا وزينتها، وتكاد تكون أعظم الفتن من حيث الشمول، وعدم التفطن لها، ولذا لا يكاد يسلم منها أحد، ولعل هذا هو سبب تنوع علاجها في السورة، وتشعب طرقه، حتى يصل العلاج إلى أغوار النفس البشرية.

٣) الفتنة عند حلول أقدار الله المؤلمة، بالتسخط بالمقدور، وشكاية الخالق للمخلوق، وسوء الظن به. وقد تكفلت قصة موسى مع الخضر بعلاج هذه الفتنة، وبيان أن وراء الظاهر من المصائب، والمؤلم من المعايب، لطفٌ لله خفي، وباطن ندي، لكن بالصبر في الحال، واعتبار المآل، إما دنيوي عاجل، أو أخروي آجل.

٤) الفتنة بالجاه والسلطان، والمنزلة الرفيعة، وحاجة الناس، وقد تكفلت قصة ذي القرنين بعلاج هذه الفتنة، باعتباره نموذجاً للسلطان العادل، الذي لم تغرّه عظمة سلطانه، ولم يخدعه خضوع الممالك بين يديه، وتيسير أسباب كل شيء له.

٥) الغلو بالأنبياء والصالحين، وهي من الفتن ذات الانتشار الواسع، زماناً ومكاناً، ولذا تعددت مواضعها في السورة، وتنوعت أوجه علاجها.

٦) الفتنة بالمسيح الدجال، وهي أعظم الفتن التي تمر بالبشرية، لسرعة انتشاره، وكثرة أعوانه، وتمكنه من أنواع الفتن التي تستهوي القلوب، وتخدع البصائر، مع الرغبة في ثوابه، والرهبة من عقابه.

وقد ظهر في ثنايا هذا البحث نتائج كثيرة، منها:

١) أثر القرآن في النفس البشرية، والولوج إلى أعماقها، وتتبع مساربها، وعلاج خلجاتها، ومن ثم صد كل فتنة تعترض المعتصم به.

٢) أهمية تدبر القرآن، والغوص في معانيه، والتعرف على أهدافه، والاستشفاء به، إذ لا تكفي القراءة العابرة، أو لأجل تحصيل الأجر الموعود.

٣) في السورة تبرز قضية الربط بين الأسباب والمسببات، فمن تعرض لأسباب الفتن فتن، ومن نأى عنها، ونكرها، واتخذ أسباب الوقاية منها نجا وسلم.

٤) بينت الدراسة أهمية الجهد البشري، وأنّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وأن ليس للإنسان سوى سعيه، وبناء على ذلك فإن الخطوة الأولى نحو الخير أو الشر لها ما بعدها في مستقبل هذا الإنسان، ومآله في الدنيا والآخرة.

٥) من ثمار هذه الدراسة بيان أن النجاح أمام الفتن الصغار وسيلة للثبات أمام الفتن الكبار، ومن عجز عن صدّ صغارها فهو أمام كبارها أعجز.

٦) تبين من البحث أن الدجال مع ما أعطي من أسباب، ومكن من سلطان، وهيئ له من جند، فإنه صاحب تخييل ومخاريق، وتخدمه الشياطين، ولذا من اعتصم بالله، وأكثر من الاستعاذة بالله منه، وقرأ عليه فواتح سورة الكهف، انكشف له أمره، وبطل أثره، ونجا من فتنته.

ويحسن في نهاية هذه الخاتمة ذكر بعض المقترحات التي لها مساس بالبحث:

٧) إعداد تفسير تربوي، يبني النفس البشرية، ويعالج أدواءها، ويهيئها لتحقيق مراد الله، من وجود نفس زكية، صالحة لعمارة الأرض، مع عدم الإعراض عن الله والدار الآخرة، وهذه إحدى مهمات الرسالة المحمدية المذكورة في قوله تعالى:﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(آل عمران: ١٦٤).

٨) على علماء الأمة، وطلاب العلم، إعادة النظر في آيات القرآن وسوره، لاستخراج العلاجات المناسبة لكل أدواء العصر، ومشكلات المجتمع، تحقيقاً لقول الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾(النحل: ٨٩).

٩) معرفة جوانب الضعف في النفس البشرية، والسعي إلى تقويمها، وتقويتها، وتعريف عامة الناس بها، وبيان أن مسارب الضلال، ومداخل الشياطين إنما تلج عن طريقها.

وبعد، فهذا جهد المقل، وعلى الناظر فيه أن يقوم معوجاً، ويكشف ملتبساً، نصحا لدين الله ولكتابه ولعباده، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

ثبت المراجع

١) الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي، ت: مركز الدراسات القرآنية، طبعة عام ١٤٢٦هـ، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف/المدينة المنورة.

٢) أحكام القرآن، لأبي بكر ابن العربي، ت: علي البجاوي، طبعة عام ١٣٩٤هـ الناشر: دار الفكر/ بيروت.

٣) إرشاد المبتدي وتذكرة المنتهي للقلانسي ت:عمر الكبيسي،ط١، ١٤٠٤هـ المكتبة الفيصلية/مكة.

٤) إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، ط٢، ١٤٠٥هـ، الناشر: المكتب الإسلامي/ بيروت.

٥) أساس البلاغة للزمخشري،ط١،١٤١٢هـ دار النفائس/بيروت.

٦) أضواء البيان، لمحمد الأمين الشنقيطي،١٤٠٣هـ المطابع الأهلية/الرياض.

٧) الاعتصام لأبي إسحاق الشاطبي، ت:سليم الهلالي ط١٤٣١،١هـ دا ر ابن القيم/ الرياض

٨) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم الجوزية، ت: عصام الدين الصبابطي، الناشر: دار الحديث/ القاهرة.

٩) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن قيم الجوزية، ت: محمد عزير شمس، ط١،١٤٣٢هـ، دار عالم الفوائد/ مكة.

١٠) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، لشيخ الإسلام

ابن تيمية، ت:د. ناصر العقل، ط٥، ١٤١٥هـ، دار المسلم/الرياض.
١١) الأم للإمام الشافعي، تعليق: محمود مطرجي،ط١٤١٣،١هـ،الكتب العلمية/بيروت.
١٢) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ومعه عدة السالك، تأليف محمد محيي الدين، المكتبة العصرية/بيروت.
١٣) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري:ط٤،١٤١٢هـ راسم للدعاية/جدة.
١٤) البحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي،ط١،١٤١٢هـ دار الفكر/بيروت.
١٥) البداية والنهاية لابن كثير، ت:د. عبدالله التركي، ط١، ١٤١٨هـ، مركز هجر للبحوث/القاهرة.
١٦) التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر/تونس.
١٧) التفسير البسيط للواحدي،ط١، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
١٨) تفسير البيضاوي(أنوار التنزيل وأسرار التأويل) لناصر الدين البيضاوي، ت: محمد مرعشلي ط١٤١٨،١هـ دار إحياء التراث العربي/ بيروت.
١٩) تفسير الرازي، للفخر الرازي،ط٣،١٤٠٥هـ،دار الفكر/بيروت.
٢٠) تفسير أبي السعود(إرشاد العقل السليم)لأبي السعود العماري،ط١، الناشر: دار إحياء التراث العربي/ بيروت.
٢١) تفسير السمرقندي(بحر العلوم)لأبي الليث السمرقندي، ت: علي

محمد معوض وآخرون،ط١،١٤١٣هـ، الكتب العلمية/ بيروت.
٢٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ط١، ١٤٠٦هـ، الناشر: دار المعرفة/ بيروت.
٢٣) التفسير القيم لابن القيم، جمع: محمد أويس الندوي، ت: حامد الفقي، دار الكتب العلمية/ بيروت.
٢٤) تقريب التهذيب للحافظ ابن حجر، ت:عبد الوهاب عبد اللطيف ط٢،١٣٩٥ هـ، الناشر: دار المعرفة/بيروت.
٢٥) تلخيص الحبير لابن حجر العسقلاني، ت: عبدالله هاشم، دار المعرفة/بيروت.
٢٦) تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل لأبي ببكر الباقلاني، ت: عماد الدين حيدر،ط١، ١٤٠٧هـ،مؤسسة الكتب الثقافية/بيروت.
٢٧) تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر، ت: مصطفى عبد القادر، ط١، ١٤١٥ هـ، دار الكتب العلمية/بيروت.
٢٨) تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري، ت: عبد السلام محمد هارون وآخرين، طبعة عام١٣٨٤هـ، الناشر: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر
٢٩) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد لسليمان بن عبدالله محمد بن عبد الوهاب، ط٣، عام ١٣٩٧هـ، المكتب الإسلامي/ بيروت.
٣٠) التيسير في القراءات السبع لأبي عمرو الداني، ت: اوتو تريزل ط٢، ١٤٠٤هـ، دار الكتاب العربي/ بيروت.

٣١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان(تفسير السعدي) تأليف: عبد الرحمن السعدي، ت: عبدالرحمن اللويحق، ط١، ١٤٢١ هـ، مؤسسة الرسالة/بيروت.

٣٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن(تفسير الطبري) لابن جرير الطبري، ط ٣، ١٣٨٨ هـ، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده.

٣٣) الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله القرطبي، تصحيح: أحمد عبد العليم البردوني، ط٢، ١٣٧٢هـ، الناشر: دار إحياء التراث العربي/ بيروت.

٣٤) جمهرة اللغة لأبي بكر ابن دريد، تح: د. رمزي بعلبكي، ط١، ١٩٨٧م دار العلم للملايين/ بيروت.

٣٥) حجة القراءات لابن زنجلة، ت: سعيد الأفغاني،ط٤، ١٤٠٤هـ مؤسسة الرسالة/ بيروت الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لجلال الدين السيوطي، ت: د. عبدالله التركي، ط١، ١٤٢٤هـ، مركز هجر للبحوث/القاهرة.

٣٦) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين الألوسي، طبعة عام ١٤٠٨هـ،دار الفكر/ بيروت.

٣٧) زاد المسير، لأبي الفرج ابن الجوزي ط٤،١٤٠٧هـ، المكتب الإسلامي/ بيروت.

٣٨) سنن الترمذي، لأبي عيسى الترمذي، ت: أحمد محمد شاكر،ط١، الناشر: المكتبة التجارية/ مكة المكرمة.

٣٩) سنن أبي داود، للإمام أبي داود السجستاني، مراجعة وضبط: محمد

محي الدين عبدا لحميد،ط١، دار الفكر/ بيروت.
٤٠) السنن الكبرى للإمام البيهقي، ت: محمد عبدا لقادر عطا، ط١، ١٤١٤هـ دار الكتب العلمية/ بيروت.
٤١) السنن الكبرى للنسائي، ت: د. البنداري ط١، ١٤١١هـ دار الكتب العلمية/بيروت
٤٢) سنن ابن ماجه، ت: محمد فؤاد عبدا لباقي، ط ١، ١٣٧٣ هـ دار الكتب العلمية/بيروت.
٤٣) سير أعلام النبلاء للذهبي، ط ١٠، ١٤١٤هـ، مؤسسة الرسالة/ بيروت.
٤٤) شرح العقيدة الطحاوية لأبي العز الحنفي، ت:د.عبدالله التركي،ط٧، ١٤١هـ مؤسسة الرسالة/ بيروت.
٤٥) شرح مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، د. مساعد الطيار،ط٤،١٤٣٣هـ،دار ابن الحوزي/الدمام.
٤٦) الشريعة لأبي بكر الآجري،ط٢، ١٤٢٠هـ دار الوطن/الرياض.
٤٧) شعب الإيمان للإمام البيهقي، ت: محمد السعيد بن بسيوني،ط٢، ١٤٢٩هـ، دار الكتب العلمية/ بيروت.
٤٨) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لإسماعيل الجوهري، ت: أحمد عبدالغفور عطار، ط٣،١٤٠٤هـ، دار العلم للملايين/بيروت.
٤٩) صحيح البخاري، ط٥، ١٤٠٦هـ عالم الكتب/ بيروت.
٥٠) صحيح الجامع الصغير وزياداته((الفتح الكبير))، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، ط٢، ١٤٠٦هـ المكتب الإسلامي/بيروت.

٥١) صحيح مسلم، ت: محمد فؤاد عبدالباقي، ط٢، ١٩٧٢م،دار إحياء التراث العربي/ بيروت.

٥٢) صحيح مسلم بشرح النووي،ط١، ١٣٤٩هـ، المكتبة المنصورية/القاهرة.

٥٣) ضعيف الجامع الصغير وزياداته((الفتح الكبير))، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، ط٢، ١٣٩٩هـ، المكتب الإسلامي/ بيروت.

٥٤) العجاب في بيان معرفة الأسباب للحافظ ابن حجر، ت:فواز زمرلي،ط١، ١٤٢٢هـ، دار ابن حزم/بيروت.

٥٥) عقيدة السلف وأصحاب الحديث لأبي عثمان الصابوني، ت:د.ناصر الجديع،ط١، ١٤١٥هـ،دار العاصمة/الرياض.

٥٦) غريب الحديث لأبي سليمان الخطابي، ت: عبدالكريم العزباوي طبعة عام ١٤٠٣هـ،الناشر: جامعة أم القرى/ مكة المكرمة.

٥٧) فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري، للحافظ ابن حجر العسقلاني، ت: عبدالعزيز ابن عبدالله بن باز، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية/ الرياض.

٥٨) فتح الباري شرح صحيح البخاري لزين الدين ابن رجب، ت: محمود بن شعبان وغيره،ط١،١٤١٧هـ، مكتبة الغرباء/ المدينة النبوية.

٥٩) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، لمحمد بن علي الشوكاني، ت: أحمد عبد السلام ط١، ١٤٢٨هـ، الناشر: المكتبة العصرية/ جدة.

٦٠) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد لعبدالرحمن آل الشيخ،ط٦،١٣٩٨هـ، المكتبة السلفية/المدينة المنورة.

٦١) الفتنة وموقف المسلم منها. د. محمد العقيل. ط١، ١٤٢٦هـ دار أضواء السلف/الرياض.

٦٢) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية للعجيلي، دار الفكر/بيروت.

٦٣) الفوائد لابن القيم، ت: بشير محمد عيون،ط٤، ١٤٢٢هـ دار البيان/دمشق.

٦٤) القاموس المحيط للفيروزأبادي، دار الكتاب العربي.

٦٥) القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة، د. عبد الرحمن المحمود. ط١،١٤١٤هـ،دار النشر الدولي/الرياض.

٦٦) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله، للميداني، ط١، ١٤٠٠هـ، دار القلم/دمشق.

٦٧) القواعد الحسان للسعدي، وتعليق الشيخ محمد بن عثيمين،ط١،١٤٣١هـ، دار ابن الجوزي/الدمام.

٦٨) كتاب العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، ت: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، ط١، ١٤٠٨هـ ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات/ بيروت.

٦٩) كتاب السيعة لابن مجاهد، ت: شوقي ضيف، دار المعارف/مصر.

٧٠) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، لأبي القاسم الزمخشري،

طبعة عام ١٣٩٢هـ،الناشر:شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده بمصر.

٧١) لسان العرب، لجمال الدين ابن منظور، تصحيح: نخبة من علماء اللغة،ط٢، دار صادر/ بيروت.

٧٢) لوامع الأنوار البهية، للسفاريني،ط٣، ١٤١١هـ المكتب الإسلامي/بيروت.

٧٣) مجمع الزوائد لنور الدين الهيثمي، ت: عبد الله الدرويش، هـ، دار الفكر/بيروت.

٧٤) مجموعة فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن قاسم، طبعة عام ١٤٠٤هـ، الناشر: الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين.

٧٥) محاسن التأويل، تأليف: محمد جمال الدين القاسمي، ط١، ١٣٧٦هـ، تصحيح: محمد فؤاد عبدا لباقي، دار إحياء الكتب العربية/ القاهرة.

٧٦) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تأليف عبد الحق ابن عطية الأندلسي، ت: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١، ١٤١٣هـ، دار الكتب العلمية/بيروت.

٧٧) المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري، وبذيله التلخيص للذهبي،ط١، ١٤٠٦ هـ إشراف د. يوسف المرعشلي، دار المعرفة/ بيروت.

٧٨) مفتاح دار السعادة لابن القيم، ت:عبد الرحمن حسن،ط١، ١٤٣٢هـ، دار عالم الفوائد/مكة المكرمة.
٧٩) المسند للإمام أحمد بن حنبل، ط٢، ١٤٢٠هـ،إشراف د. عبدالله التركي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة/ بيروت.
٨٠) مشكل الآثار للطحاوي، تصحيح: محمد عبدالسلام شاهين، ط١، ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية/بيروت.
٨١) المصنف لأبي بكر ابن أبي شيبة، ت: مختار أحمد الندوي وآخرين، ط١، الناشر: الدار السلفية/ بومباي، الهند.
٨٢) المصنف لأبي بكر عبد الرزاق الصنعاني، ت: حبيب الرحمن الأعظمي، ط٢، ١٤٠٣هـ، المكتب الإسلامي/ بيروت.
٨٣) معالم التنزيل للإمام البغوي، ت: محمد عبد الله النمر وآخرين، ط١، ١٤٠٩هـ، دار طيبة/ الرياض.
٨٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج، ت:د. عبد الجليل عبده ط١، عالم الكتب/بيروت
٨٥) معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس، ت: عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية/ قم.
٨٦) مفاتيح الغيب للفخر الرازي،ط٣،١٤٠٥هـ،دار الفكر/بيروت.
٨٧) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ت:محمد سيد كيلاني، دار المعرفة/بيروت.

٨٨) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس القرطبي ط١،دار ابن كثير/ بيروت.

٨٩) مناهل العرفان في علوم القرآن للزُّرْقاني،ط٢،الناشر :مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٩٠) الموافقات في أصول الشريعة، لأبي إسحاق الشاطبي، عناية: عبدالله دراز وآخرين، ط١، ١٤١١هـ، دار الكتب العلمية/ بيروت.

٩١) الناسخ والمنسوخ لأبي حعفر النحاس، ت:سليمان اللاحم،ط١،١٤١٢هـ مؤسسة الرسالة/ بيروت.

٩٢) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر لابن الجوزي، ت: محمد عبد الكريم كاظم الراضي،ط١٤٠٤،١هـ،مؤسسة الرسالة/ بيروت.

٩٣) النشر في القراءات العشر لابن الجزري، صححه علي محمد الضباع.

٩٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي ، ط١، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٩٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، للإمام أبي السعادات ابن الأثير، ت: طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، ط١، ١٣٨٣هـ.

٩٦) الواضح في علوم القرآن لمصطفى ديب البغا،ط٢،١٤١٨هـ دار الكلم الطيب/ دار العلوم الانسانية – دمشق.

٩٧) الوسيط في تفسير القرآن للواحدي، ت. عبد الرحمن عويس وآخرين،ط١، ١٤١٥هـ الكتب العلمية/ بيروت.

فهرس الموضوعات:

المقدمة ١٣
أهمية الموضوع وأسباب اختياره ١٤
الدراسات السابقة ١٥
خطة البحث..... ١٦
منهج البحث ١٧
التمهـــيد ١٩
المبحث الأول: الفتنة عن الدين الحق..... ٢٥
المبحث الثاني: الفتنة بالحياة الدنيا وزينتها..... ٤٤
المبحث الثالث: الفتنة عند وقوع القدر المكروه ٧٥
المبحث الرابع: الفتنة بالتمكين وعلو المقام ٩٠
المبحث الخامس: فتنة الغلو بالأنبياء والأولياء ٩٩
المبحث السادس: العصمة من فتنة المسيح الدجال.....١١٧
الخاتمة ١٣٢
ثبت المراجع.....١٣٦
فهرس الموضوعات.....١٤٦